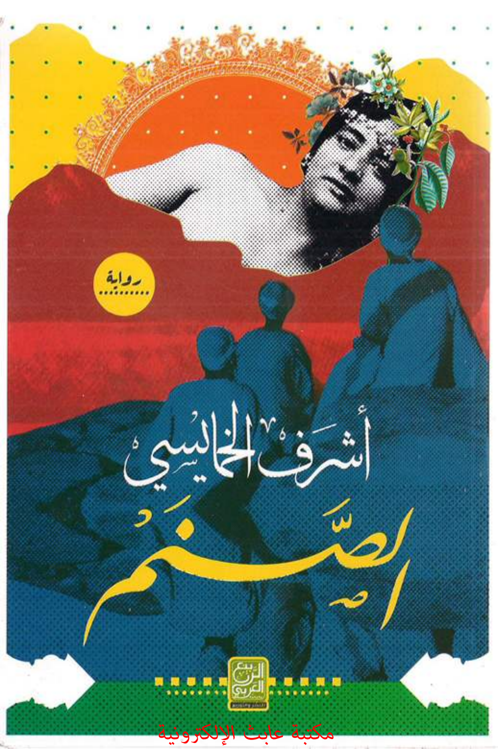

رواية
أشرف الخمايسي
الصنم
الربيع العربي

الصنم
رواية
أشرف الخمايسي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

طبعة أولى (دار الربيع العربي) مايو 2015

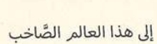
الخمايسي، أشرف
الصنم، رواية،
ط1 دار الربيع العربي، القاهرة، مصر.
ردمك: 3-35-5221-977-978
رقم الإيداع(مصر): 2015/7876

الربيع العربي

للطباعة والنشر والدعاية والإعلان
المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم
002-01141411118
002-01140848568
www.rabe3arabe.com
rabe3arabe@gmail.com
rabe3arabe







إلى هذا العالم الصَّاخب

«النَّجاح»: نهاية سلَّم درجاته «فشل» تلو «فشل»...

آمن معي أن «الفشل» مهم للغاية، تكن عظيمًا.

فصل

وعندما بدأنا نكبر، بدأت أمَّهاتُنا في الرَّحيل إلى أسفل شواهد القبور، كان آباؤنا يحملون «المحفَّات» المُحمَّلة بجثثهنَّ، وكنَّا نسعى بينهم وعيوننا تنهمر منها الدُّموع، وكان «مرز» يسعى بيننا بعينين جامدتين، وعندما تبتلع القبور أمَّهاتنا، وعندما يبني آباؤنا عليها الشَّواهد، كنَّا نعود إلى بيوتنا، لكن «مرز» لم يكن يرجع، كان يبقى طوال الليل جالسًا بين قبور أمَّهاتنا....

هناك.

هناك......

هناك في الشَّرق.

هناك خلف آلاف الأفدنة من الحقول.

تُوجد «المحطَّة» التي يقف فيها القطار، المحطَّة التي لا يركب منها أحد، ولا ينزل إليها أحد، فقط يأتي القطار، هادرًا، مثل وحشٍ ضارٍ، ليقف عليها قليلًا، ثم يمضي بينما الدُّخان الأسود، المعتم، يتدفَّق من قِمَّته، والدُّخان الأبيض، النَّاصع، يندفع من بين عجلاته.

هناك يوجد الكُشك الخشبي، ذو السَّقف المائل، الذي يعمل فيه أخونا «معاذ».

«معاذ»، في هذا الكشك، يجذب أذرعةً حديديَّةً، ويدفع أذرعةً حديديَّةً، فتتغيَّر سِكك القطارات، ويتسلَّق أعمدة «السيمافورات» ليعلِّق في نهاياتها «كلوبَّات» الإضاءة، التي تسمح، أو لا تسمح، بمرور

القطـارات.

«معـاذ» هـو الـذي قـال لنا إنَّـه بهـت عندمـا رأى ولـدًا يـنزل مـن القطـار، ولـدًا ثيابـه مهلهلـة، وشـعره أكـرت متشـابك، وقدمـاه حافيتـان، ولـدًا بائسًـا.

لـم يُبهَـت «معـاذ» لأوصـاف الولـد، وإنَّمـا بُهِـت لرؤيتـه أحـد يـنزل إلى «المحطَّـة» الـتي عمـل فيهـا كل عُمره فلـم يـنزل إليهـا أحـد، وقـال لنـا، أيضًـا، إن هـذا البائـس وقـف، وجـرت عينـاه تمسـحان الأفـق، وعندمـا تجـري العينـان عـلى الزُّروع، والأشـجار، والنَّخيـل، دون اهتمـام، فـإن صاحبهمـا، بالتَّأكيـد، يكـون ابـن قريـة.

«معـاذ» قـال إن هـذا مـا اسـتنتجه مـن أول نظـرة نظرهـا للطِّفـل الغريـب.

ولمَّا رآه يُحدِّق في الأفـق عـرف أنَّـه يبحـث عـن بلـد، يبحـث عـن بيـوت.

وبيوتنـا يسـتحيل عـلى أيّ إنسـان أن يسـتدل عليهـا مـن عنـد محطَّـة القطـارات.

فبيوتنـا واقعـة في حضـن الصَّخـرة الشَّـاهقة، لذلـك تـذوب ملامحهـا في تكويـن الصَّخـرة فلا يكشـف وجودهـا أحـدٌ أبـدًا مـن عنـد «المحطَّـة».

ولـو لـم يكـن «معـاذ»، يومهـا، أشـار إلى المـدق الضَّيـق، المـؤدِّي إلى بيوتنـا، ليسـير فيـه «مـرز»، ويصل إلينـا، لمـا جـرى بعـد ذلـك الـذي جـرى، ولعشـنا، كمـا كنَّـا نعيـش دائمًـا، في هـدوء، وسـكون، واطمئنـان رتيـب، ولمـا أفزعنـا الجديـد، ولمـا أدهشـنا الغريـب، ولمـا سـهرنا الليـالي نفكِّـر في عجائـب هـذه الشـخصيَّة.

ولـو أنَّنـا عرفنـا، يومهـا، أن هـذا الطِّفـل، عندمـا يكـبر، سـيقلقل أحوالنـا لتصرَّفنـا في طريقـة تخلِّصنـا منـه، لكنَّنـا للأسـف لـم نكـن نعـرف، فقـد كنَّـا أيضًـا عيـالًا مثلـه، وآباؤنـا كانـوا طيِّبـين، وليـس لهـم في الشَّر، فلـم يمانعـوا في أن يعيـش بيننـا، لـم يمانعـوا رغـم أن سـلوكه لـم يكـن سـلوكًا طبيعيًّـا مثـل سـلوكنا، فهـو لـم يكـن يلعـب مطلقًـا، لـم نسـمع صوتـه مطلقًـا، لـم يتكلَّـم مطلقًـا، لـم يضحـك، لـم يبـكِ، حتَّـى لـم يبتسـم مطلقًـا!

كان، فقـط، مقطِّبًـا جبينَـه مثـل رجـل عجـوز، وبتقطيبـة جبينـه هـذه دخـل قلـوب أمَّهاتنـا، سـكن قلوبهـنَّ، فأطعمنَـه مـن دجاجنـا، ومـن خِرافنـا، ومـن ألبـان أبقارنـا، ومـن لحـوم جاموسـنا، كـنَّ يضعـن الطَّعـام أمامـه ويربـتن عـلى كتفـه، ويحاولـن بإلحـاح أن يجعلنـه ينطـق، يسـألنه عـن بلـده، عـن ناسـه، عـن

سبب ركوبه القطار وهجرته إلينا، وهو يأكُل - صامتًا - ما يقدِّمنه له في الأطباق، أو داخل الأرغفة، غير آبهٍ بأسئلتهن المُستطلعة، وعندما كنَّا نطلب منهن الكفَّ عن محاورة أخرس كنَّ يزعقنَ فينا، ويقُلن أنَّه ليس أخرس، ومبررهن أن الأخرس لا يسمع، و«مرز» يسمع لكنَّه لا يريد أن يتكلَّم.

كان المفروض أن تحنق أمَّهاتنا عليه لعدم انتباهه لهن، لكن تقطيبة جبينه كانت تثير حنانهن للدَّرجة التي دفعتهن لإعطائه «جلاليب» من «جلاليبنا» ليرتديها عند غسلهن «جلابيته»!

ولم تكن من حكاية لأمَّهاتنا، عند تجمُّعهن في فرح، أو في جنازة، سوى حكاية قدوم هذا البائس إلى نجعنا، ومن أين جاء، ومَن أمُّه، ومَن أبوه، وهل هو ابن ناس، أم ابن حرام؟

كن يتحدَّثن عنه ويمصمصن شفاههنَّ حزنًا عليه، كنَّ يتساءلنَ: كيف سيعيش من غير عائلة! كيف سيحيا من غير جذور! مَن سيُعلِّمه! وإذا شبَّ، وفارت رجولته، وطلب الزواج، مَن سيقبل أن يزوِّجه؟ كيف سيحيا، مثل النَّاس، في أمن وأمان؟

ولم تعرف أمَّهاتنا الطَّيبات أنَّهن قد حملنَ همَّ

واحدٍ من بني آدم لا يجب أن يُحمَل همُّه.

لأن هذا الطِّفل عندما كبر اكتشفنا أنَّه عبيط!

تصرُّفاته تقول هذا، تقول أنَّه عبيط، والعبيط لا يُعاتَب، ولا يُحاسَب، لا يُؤخذ عليه، ولا يشعر أن شيئًا ينقصه، لذلك كان طبيعيًّا أن يعيش بسهولة.

وعلى الرُّغم من أنَّه كان يشاركنا أفراحنا من أجل لقمة عيشه، وكذلك أحزاننا، إلَّا أنَّه كان نافرًا منَّا، ونحن بدورنا لم نكن نشعر بوجوده.

لكن عندما كان يعمل أعماله المخبولة كنَّا نشعر به وكأنَّه جثم على صدورنا ليزهق أرواحنا، مثل بيوتنا التي تكتم هذه الصَّخرة العملاقة أنفاسها فتكاد تموت.

فصل

الملائكـة في السَّـماء مبتهجـة، أبهجهـا عـزف «المزمار» وخـصر «جوهـرة» المنتفـض، الملائكـة فعـلًا كانـت مبتهجـة....

كانت شمسنا المتأجِّجة تغور إلى الصَّخرة الضَّاربة في السَّماء، و«الدِّكك» الكثيرة، التي وُضعت أسفل شجرة «الكافور» في ساحة «الرَّهبة»، قد ازدحمت بنا.

أمام «الدِّكك» «فسحاية» صغيرة، وقف فيها «الطبَّالون» و«الزمَّارون».

كان «الطبَّالون» يضربون أغشية طبولهم المشدودة بالعصيّ الرهيفة، و«الزمَّارون» ينفخون في المزامير، وعلى مسافة ليست بعيدة وقف أوتومبيل «فورد» أزرق، يعكس وهج الشَّمس.

و«طهبج» فرحان بابنته العروسة، فيدور علينا رافعًا ذراعيه، مُرحِّبًا بنا، يدور علينا وخلفه «مرز» يحمل صينيّة واسعة مُحمَّلة بعشرات الأكواب الممتلئة بالشَّاي الأسود الملتهب.

يدور علينا وخلفه «مرز» يعطينا السَّجائر.

يدور علينا وخلفه «مرز» يحمل «الشيَش» ويوزِّعها علينا.

ولم ننتبه للشّاي، أو للشّيّش، أو للسّجائر، وإنّما عيوننا التصقت بالأيادي التي تضرب «الطّبل»، وبالأصابع التي تتنطّط على ثقوب المزامير.

كانت الموسيقى الطّالعة مثيرة، والأعصاب مضطربة، ولم نقدر على الإمساك بأعصابنا المضطربة، فقام عدد منّا وأخذ يرقص.

و«طهبج» فرحان بنا، وفرحان بالأوتومبيل «الفورد» الأزرق الذي ستركبه العروسة إلى المدينة لتتزيّن عند «الكوافير».

واحد من الرجال «الزمّارة» خرج فجأةً من صف «الزمّارين» ونفخ بشدّة في مزماره، ومزماره صدح، فبدا في عيوننا بنتًا ميّاسة تزغرد، فتوقّفت كل «الطّبول»، وكل «المزامير»، وبقي هذا المزمار وحده يصدح بالنّغم، وصدح صدحًا خفّف رءوسنا للدّرجة التي جعلتنا نشعر بها تنفصل عن أجسادنا وتطير.

«طهبج»، لمّا رأى فرحتنا، كاد صدره يتمزّق من فرط سعادته، وزعق في «الزمّار» طالبًا منه الصّول والجول، وصال «الزمّار» وجال، وطار منه النّغم إلى البنات الملتفّات حول العروسة، وتلوّى بينهن متضوّعًا مثل «المِسك»، فانطلقت منهن الزّغاريد، وانطلقت

منهن الأغاني، وانطلقت منهن بنت ملفوفة، وجرت حتّى «الرّهبة» المزدحمة بالرّجال، ولم تقف إلا في وسط السّاحة بين «الطبّالين» و«الزمّارين».

واندهشنا!

بنت طايبة، عفيّة، صدرها رُمّان طازج، ترقص بين رجال!

وصاح المزمار صيحة منتشية، والبنت خلعت طرحتها فتبدّت لنا «جوهرة»!

تفجّر اندهاشنا.

«جوهرة» بنت العائلات!

وحزّمت خصرها بطرحتها، ونزل «الزمّار» أمامها على إحدى ركبتيه وأخذ ينفخ، مزماره يميل مع ميلات وسط الجسد الفائر، ورءوسنا الدّائخة رأت صدح المزمار كلامًا، ورأت ارتعاشات الجسد الفائر كلامًا، رأينا حوارًا!

يقول المزمار:

- بحبك.

يقول الجسد الفائر:

- عارف.

المزمار يهمس:

- عاشق.

يتلوى الجسد:

- وأنا مالي.

يهيم صاحب المزمار، ويتأجَّج قلبه مثل الفرن، وينفخ فيندفع الهواء السَّاخن من ثقوب المزمار إلى وجوهنا.

المزمار صرخ صُراخ الوجد، وأنَّ أنين الحنين، ونطق بعذاب الشَّجن.

وجسد «جوهرة» يرِق، ويتموَّج، مثل بساط حريري يتعرَّض لنسمات ليلٍ ربيعيّ.

وشَعر رءوسنا اهتاج من النَّغم الشَّجيّ، والبنت تتلوَّى مثل «لبسة» فضِّية خارجة من «الدمِّيرة».

ركبت العروسة الأوتوموبيل «الفورد»، الأزرق، الذي انطلق بها إلى المدينة مثيرًا خلفه الغبار، والمزمار يقبض على قلوبنا، وتوشُّله هيَّج مشاعرنا:

- الوصاااال.. الوصاااااال.

وعندما اهتز الجسد الفائر هزَّة الهجر ناح المزمار، ناح ونشر الحزن.

انزعج «طهبج»، فصرخ في عازف المزمار:

- يا زمَّار.. هات يا أخي أنغام الصَّفا.

وتدق «الطُّبول» دق الصَّفا، وتميل «جوهرة»، وتتأرجح، وفي ميلها تغيب، فترفع يديها إلى عِب «جلَّابيتها»، وتقبض بشدَّة، وتجذبه جذبة واحدة، قويَّة، فتتمزَّق «جلَّابيتها» وتسقط إلى ثرى السَّاحة.

«الطُّبول» تهيج، و«المزامير» تصدح، والدِّماء غلت في أوردتنا، و«جوهرة» ترقص بقميص لا يكتم الأسرار.

«جوهرة» في غيبوبتها تُجن فتمزِّق القميص الفتَّان!

تدافعنا فوق «الدِّكك»، صدورنا تنفث لهبًا، غمرتنا النَّشوة، أغرقتنا تمامًا فلم نشعر بـ«حومة» وهو يخترق الحشد، وإنَّما شعرنا به عندما سمعنا صوته الملتاع:

- بِتِّي! بِتِّي! آاه يا بِتِّي! بترقص! بترقص عريانة! وسط رجال؟

و«جوهرة» في وادٍ آخر، بعيد عن ولولة «حومة»،

تـدور حـول نفسـها، وهـي تحجـل فتُثـير غبـارًا خفيفًـا بأطـراف أصابـع قدميهـا، شـعرها يطـير مـع نغـم المزمـار، عيناهـا مُغمضتـان.

«حومـة» اندفـع نحوهـا، ويـده هـوت عـلى ظهرهـا، ويـده أمسـكت شـعرها، وجذبهـا خلفـه، واتَّجـه بهـا نحـو النَّهـر.

كانت الظُّلمة قد بدأت في صبغ السَّماء والأرض.

عرفنا الذي سيفعله «حومة»، وتهامسنا:

- «حومه» هايقتل «جوهرة».

تهامسنا:

- مش بِتُّه؟

تهامسنا:

- هِيَّا بِتُّه.. وهُوَّا أبوها.. وهُوَّا حر!

مشـينا خلـف «حومـة» وابنتـه العريانـة في مظاهـرة، و«طهبـج» أصابـه حـزن شـديد، عندمـا وجـد سـاحة «الرَّهبـة» تخلـو إلَّا مـن الثَّلاثـة رجـال الذيـن يقرعـون «الطَّبـل»، والثَّلاثـة الذيـن ينفخـون «المزامـير».

مشـينا وراء «حومـة» وابنتـه حاملـين مشـاعل النَّـار،

لنضيء بهـا الطَّريـق، الضَّيقـة، الملتويـة بـين الـزُّروع، حـتَّى وصلنـا إلى كـرْم النَّخيـل خلـف «سـباتة» «مـرز».

كـرْم النَّخيـل الـذي يُطـل عـلى النَّهـر المتدفِّـق في أنـاةٍ.

بـزغ القمـر مـن خلـف سـن جبـل الـشُّروق، قمـر بـرَّاق مثـل النُّحـاس، و«حومـة» واقـف بـين النَّخيـل المنتصبة وقـد داس بقدمـه عـلى عنـق «جوهـرة» الـتي كانـت تشـخر لتتنفَّـس، وسـكِّينه في يـده مُشرعـة نصلهـا.

التففنـا حولهمـا، والبعـض منَّـا تسـلَّق جـذوع النَّخيـل لـيرى جيِّـدًا، و«حومـة» ينظـر بحـزن إلى العنـق المبسـوط.

كانـت النُّجـوم قـد توهَّجـت بشـدَّة، والقمـر قفـز إلى تـل السَّـماء عندمـا جاءتـه القسـوة أخـيرًا، ومال بجسـده إلى الجسـد الفائـر الملقـى عـلى الأرض، والنَّصـل دنـا ليجـز البـشرة البيضـاء، عندمـا بوغتنـا!

فوجئنا!

لقـد خـرج مـن بيننـا كثـورٍ هائـجٍ، واتَّجـه إلى «حومة» المنحنـي عـلى ابنتـه، ودفعـه بقوَّة.

ضربتنا الدَّهشة!

«مرز»!

«مـرز» المقطـوع الـذي لا نعـرف لـه أصـلًا، ولا فصـلًا، يدفـع «حومـة» ويُسـقطه عـلى الأرض!

زعق «مرز».

زعق؟!

نعم زعق:

- جوِّزهاني.

التجمـت ألسـنتنا، تقطَّعـت أنفاسـنا، وتسـاءلنا: «أيّ عبـط هـو عبـط هـذا الآدمـي؟! كيـف يفكِّـر هـذا المقطـوع في الـزَّواج مـن بنـت «حومـة» سـليل العائلات الكبـيرة؟!»

قـام «حومـة» مـن سـقطته، وقبـض عـلى سـكِّينه، وهجـم عـلى «جوهـرة».

«مـرز»، بعنفوان، سـحب جسـد «جوهـرة»، وتصدَّى للسِّـكين، فاخترقـت كتفـه، وصرخ متألِّمًـا، وهـو يدفـع «حومـة» مرَّة أخـرى:

- بقولَّك جوِّزهاني.

«حومـة» توقَّـف، ونظـر إلينـا بعينـين مُجهَدتـين،

ونظرنا إليـه بعيـون ميِّتـة، ذلـك لأنَّنـا أحسـسنا، في هذه اللحظـة، أن «حومـة» قـد ضعـف عـن قتـل ابنتـه، وأنَّه قـد تحالـف مـع الأقـدار كي يُهـين نفسـه.

يُصر على «مرمطة» كرامته!

بنتـه الفائـرة ترقـص بيننـا عاريـةً، فـلا يغسـل شرفَـه بقتلهـا، وإنَّمـا يتركهـا حيَّـة.

بل يتدنَّى ويزوِّجها، فعلًا، للمقطوع «مرز»!

فصل

هـل يُمكـن أن تُستعمَل هـذه الآلـة في القتـل؟! هـذه الآلـة الـتي اسـمها.. الـتي اسـمها.. الـتي اسـمها.....

طبيعي جدًّا أن نضرب من يضربنا، وأي واحد منَّا لو ضربه واحد فسوف يضربه، وربما يقتله، فمن منَّا يمكنه أن يتحمَّل المشي في البلد بينما العيال يُشيرون إليه ويصرخون بأصواتهم المسرسعة أنَّه مضروب، وأنَّه لم يقدر أن يَضرِب؟ ومن منَّا يمكنه أن يصبر على كلام الحريم في البيوت، عند تجمُّعهن في فرح، أو في جنازة، وهن يخُضن في سيرته، ويعايرنه بأنَّه جمل «ناخخ»، أو أنَّه ثور واقع؟

المسألة شائكة، لكن ليس لها سوى إجابة واحدة، إجابة واحدة واضحة، إجابة ساطعة سطوع الشَّمس المبهرة.

لا مفر من الضَّرب، وأخذ الثَّأر.

ومن أجل ذلك نعمل ما بدا لنا، نذبح الدَّواجن، والنِّعاج، والبقر، والجاموس، ونعبِّئ بلحومها أذرعتنا، ونصرع من يضربنا.

نشحذ أسنَّة مناجلنا، ونرهِّف شفرات فؤوسنا،

ونحـشّ بهـا رقبـة مَـن يضربنـا.

ننظِّـف مواسـير بنادقنـا، ونمـلأ خزائنهـا بالرَّصـاص، ونربـض في طريـق مـن يضربنـا.

لا بُد من تخيُّر وسيلة ما ضدَّه.

هذا هو حل المسألة ببساطة.

لكـن «مـرز» تعامـى عـن كل هـذا، وفعـل الـذي لـم يفعلـه أيُّ رجـل منَّـا مـن قبـل!

كان «سـعود» قـد ضربـه في السَّـاحة الواسـعة الـتي أمـام المسـجد، ضربـه أمـام كل النَّـاس في وسـط البلـد، ودفسـه بقدمـه في وركـه فأوقعـه علـى الـتُّراب، وبهدلـه، مسـح بكرامتـه الأرض، و«مـرز» لا يفعـل أكـثر مـن أنَّـه يكتفـي بمحاولـة تخفيـف قـوَّة اللكـم واللكـز بذراعيـه.

العجيـب أن «سـعود» جسـده ضئيـل جـدًّا، لـو أن أحدنـا نفـخ فيـه سـيطيره! إلَّا أن «مـرز» فقـط قـام، وأخـذ ينفـض الـتُّراب عـن هدومـه وهـو يمضـي ناحيـة «سـباتته»!

تعجَّبنـا مـن سـكوت «مـرز»، لكنَّـا في أنفسـنا قلنـا: ربمـا يشـعر بأنَّـه مـن غـير جـذور تسـنده، وربمـا عبطـه لا يجعلـه يشـعر أنَّـه قـد أُهيـن أصـلًا.

وقلنـا: ربمـا سـكوته هـو سـكوت مـا قبـل العاصفـة، وأنَّـه قـد يقتـل «سـعود» في الليـل.

لذلـك قضينـا الليـل فاتحـين آذاننـا لنسـمع صرخـة «سـعود» عندمـا يكبـس عليـه «مـرز».

لكن الليل انقضى دون أن نسمع هذه الصَّرخة.

وإنَّمـا، في الصَّبـاح، سـمعنا صراخ «جوهـرة»، وهـي تجـري ناحيـة بيـت «سـعود»!

اندهشنا! وبدا لنا الأمر غير مفهوم.

ماذا حدث؟!

«سـعود» هـو الـذي كبـس علـى «مـرز» في «سـباتته» وقتلـه؟!

«جوهـرة» أخـذت تقـذف بوَّابـة بيـت «سـعود» بالطـوب، وتزعـق:

- اطلـع يـا «سـعود» الكلـب وأنـا أورِّيـك.. مـرز سـاب لـك البلـد وهـج.. ااه يـا «مـرز».

عرفنـا، سـاعتها، أن العـار أكمـل ركوبـه علـى ظهـر «مـرز»، و«دلـدل» رجليـه.

وانقضت أيام... وأيام... وأيام.

ربما شهور... ربما سنة.

كانـت أيـام طويلـة قـد انقضـت عندمـا فوجئنـا بالعيـال يجـرُون قادمـينَ مـن ناحيـة طريـق «السَّـد» وأصواتهـم تسرسـع:

- «مرز» رجع... «مرز» رجع.

انطلقنـا نحـو أوّل النَّجـع، الشَّـمس في ضُحاهـا، ورأينـاه جليًّـا.

هـو «مـرز»، هـو هـو لـم يتغيَّر، عمامتـه هـي هـي، شاربه هـو هـو، «جلَّابيتـه» الكالحـة، حـذاؤه المتهرِّئ.

هو «مرز» لم يتغيَّر.

فقـط يـده اليُمـنى مُـدلَّاة، وقابضـة عـلى صنـدوق جلـدي تقـع عليـه أعيننـا لأوَّل مـرَّة، لونـه بُـنِّي داكـن، مستدير في طرف، والطَّـرف الآخـر طويـل، ورفيـع، كأن بـه ماسـورة بندقيَّـة!

كأنَّه صندوق لحفظ البنادق!

بندقيَّة في الصُّندوق؟!

قلوبنا دقَّت بعنف.

وعندمـا تـرك «مـرز» الطَّريـق المؤدِّيـة إلى «سـباتته»،

وسـار في الطَّريـق المؤدِّيـة إلى بيـت «سـعود» فهمنـا الـذي سيحـدث.

توقَّف «مرز» أمام بيت «سعود»، ووقفنا بعيدًا.

انحـنى «مـرز» والتقـط حجـرًا مـن الأرض، وقـذف بـه بوابـة بيـت «سـعود»، لحظـة وفُتحـت البوَّابـة، وبـدا «سـعود»، في سروال أبيـض، وصديـري أبيـض، واضحًـا.

في هذه اللحظة، فتح «مرز» صندوقه بسرعة.

«سـعود» بُهـت، لكنَّـه لحـق نفسـه واسـتدار بسرعـة، مُغلقًـا خلفـه البوَّابـة.

كان «مـرز» قـد أخـرج مـن صندوقـه شـيئًا عجيبًـا، شيئًا لـم نـره من قبـل مُطلقًـا، حـشره في كتفـه الشِّـمال، ويـده اليُمـنى جـرت بعصـا رهيفـة عـلى هـذا الشَّيء!

انطلق نغم!

«سـعود» أطـلَّ برأسـه مـن شـق البوَّابـة مندهشًـا، وقـال لـ«مـرز»:

- إيه دِه يا واكل ناسك؟!

«مرز» قال وهو يعزف:

- كمنجة يا «سعود».. كمنجة.

فصل

الـذي كشـف الموضـوع وجعلـه يتَّضـح، ويجلـو، مثـل شـمس الصَّبـاح، هـو هـذه الرَّائحـة، هـذه الرَّائحة الـتي كنَّـا نشـمُّها لأوَّل مـرَّة في حياتنـا.....

كلُّنا لا نعرف كيف جرؤ وفعل هذا!

فهـو لا يملـك غـير هـذه القطعـة الضيِّقـة، الـتي وهبتها لـه الطَّبيعـة، مـن الأرض المجاورة ل-»سباتته».

ونحـن، مـن نملـك الفدادين الواسـعة، لا نجـرؤ علـى عمـل الـذي عمله!

فهـو لا يـربِّي بقـرة، أو جاموسـة، أو حـتَّى نعجـة، يمكـن أن تُعطيـه لبنًـا، أو جبنًـا، أو زبـدًا، وإنَّمـا يـربِّي امـرأة تعـوز طعامًا، وتعـوز ثيابًا، وقـد يُنجـب أطفالًا يعـوزون طعامًـا، ويعـوزون ثيابًـا.

وعـلى الرُّغـم مـن كل هـذا يتـصرَّف التـصرُّف الـذي لا يـدل عـلى شيء سـوى أن عقله مُختل!

شيء عجيب حقًّا!

إنَّـه حـتَّى يستطيع أن يحيـا، هـو و»جوهـرة»، يضطر لعمـل أشياء كثيرة مُرهِقة.

مثـلًا، يصحـو مـع عصافـير الفجـر، ويذهـب إلى

حقولنـا، يعـزق، ويفلـح، ويبـذر، ويـروي، وينقِّـي زروعنـا مـن الحشـائش.

يحصـد، ويجمـع، ويعـبِّئ في صوامعنـا، وأجولتنـا، وأقفاصنـا.

يعـرق، وحيلـه يتمـزَّق، ليأخـذ في النِّهايـة فلوسًا لا تفـك أبـدًا زنقته.

وعلى الرُّغم من كل هذا فعل.....!

إنَّـه، في أفراحنـا، يضطر لإحضار الحطب، ووضعه في أفـواه «الكوانـين» الضَّخمـة، الـتي في ركـن فسـحاية «الرَّهبـة»، وإشـعال النَّـار فيهـا، ويقطِّـع للطَّاهـي أكـوام «القوطـة»، ويخـرط لـه أكـوام «الملوخيَّـة»، وينقِّي لـه جبال الأرز مـن الحصـى والطـوب، ويقلِّب النَّـار تحـت الأواني حـتَّى لا تخبـو، والدُّخـان السـاخن يكـوي عينيـه.

ويضـع عـلى الموائـد الأطبـاق المليئـة، ويرفـع الأطبـاق الفارغـة، ويـدور بالصَّـواني المُحمَّلـة بأكـواب الشَّـاي، ويبقـى طـول الليـل سـهرانًا في أفراحنـا، مـن أجـل أن يـروح إلى امرأتـه بكيـس فيـه قطـع لحـم صغـيرة، تائهـة في كمِّيـة ضئيلـة مـن الأرز المخلـوط بطبيـخ «الملوخيـة» ومـرق التقـالي.

ورغم كل ذلك عمل عمله الغريب!

عبيـط، أهبـل، لا يكتفـى بـأنَّ الزَّمـن يُعاديـه، وإنَّمـا يُعـادي نفسَـه أيضًـا.

إن تـراب الرَّمـل السَّـفيف، الـذي يتصاعـد مـن أرض «الجبَّانـة» أثنـاء حفـر القبـور، يغطِّيـه تمامًـا، ويجعلـه باديًـا مثـل إنسـان شـمعيّ.

يضطـر بالطَّبـع لحفـر القبـور، ودفـن المـوتى، وتـراب الرَّمـل السَّـفيف يتكـوَّم في صـدره، ويسـعل بشـدَّة، وفمـه يبـكُّ دمًّـا.

ابن فقر!

يضطـر لفعـل كل هـذه الأشـياء المرهقـة مـن أجـل أن يبقـى، هـو و«جوهـرة»، عـلى قيـد الحيـاة، ثـم يـزرع قطعـة الأرض، الـتي يملكهـا، ورودًا!

فصل

كأنَّه يتعمَّد أن يصوِّب خارج المرمى!

لم يبق أحدٌ، من الرِّجال، أو العيال، في البيوت.

كلُّنا خرجنا، ومشينا متَّجهين إلى غرب النَّجع، مررنا على الجسر الحجري، الذي يشطر التِّرعة «المُرَّة»، فطالعتنا بعد ذلك مقابرنا، وكلُّنا قلنا في أنفسنا: «السَّلام عليكم أيُّها الموتى.. أنتم السَّابقون ونحن اللاحقون».

بدأنا، في ضجيج، نتحلَّق ساحة الملعب، الذي سيلعب عليه فريقنا مباراة الثَّأر.

جلس بعضنا على أكوام الطِّين، الذي أخرجته «الكرَّاكة» من بطن التِّرعة وجفَّفته الشَّمس.

وجلس بعضنا على حواف شواهد القبور، التي تحيط بملعبنا.

وجلس بعضنا على أسوار مدافن العائلات.

كنَّا ندخِّن السَّجائر في انتظار قدوم اللاعبين، وعيالنا يجرون، ويتسابقون، بين القبور المتوغِّلة في «الجبَّانة».

الشَّمس في برج «العصارى» متوهِّجة، ملتهبة،
وشجرة «الجميز» الهائلة، التي تلقي بظلالها على
ربع جبَّانتنا تقريبًا، ساكنة.

أتى لاعبونا من ناحية النَّجع، «عارف» حارس
المرمى، «فصاد» و«باكا» المدافعان، «وفدي»
و«النِّيحة» المهاجمان، «القُبَّة» في خط الوسط،
وجلسوا تحت شجرة «الجميز»، وأخرج «وفدي»
علبة سجائره وأعطاهم منها، وبدءوا يدخِّنون،
عيونهم تنظر إلى الأفق، وتحدِّق في النَّاحية التي
سيأتي منها فريق نجع «اللحايوة».

لم ننتظر طويلًا، فقد ارتفعت على البعد سحابة
غبار، وبان منها جرَّار زراعي يجر مقطورة مملوءة
بالنَّاس، ثم ظهر جرَّار آخر، وأيضًا ثالث، ورابع.

كانوا سبعة جرَّارات بمقطوراتها، وربما ثمانية،
مشحونة بالنَّاس الذين يهتفون، ونزلوا منها في هياج،
واتجهوا إلى المنطقة التي حول مرمانا، وخلفه، وهم
مستمرُّون في الهتاف، وفريقهم توجَّه ناحية قبَّة
«مولانا»، وخلعوا «جلاليبهم» و«عممهم»، وعندما
نزلوا الملعب بانت لنا عضلاتهم، وهي تتقلَّص
تحت السَّراويل الطويلة، و«الصَّداري» اللامعة،
كأنَّها حيَّات تسعى، وهتاف أهل «اللحايوة» يُزلزل

القبور، وهتافهم ألهبنا، وذكَّرنا بالذي عمله فريقهم
في فريقنا على أرضهم، وصرنا بعدها كلَّما ذهبنا إلى
سوق «النَّزة»، أو «الطُّليحات»، لنقضي المصالح،
نسمع الكلام الذي يسد النَّفس، لكنَّا، على الرَّغم
من ذلك، كنَّا ننفخ صدورنا، ونتوعَّد بالذي سنفعله
على ملعبنا.

فلم نكن نشُك، قط، في أنَّنا هنا سندعكهم دعكًا.

فليس هناك فريق، غير فريقنا، يمكنه أن يحلم
ببهجة النَّصر بينما المقابر تحوطه من كل مكان،
وشجرة «جميز» ضخمة تطل عليه كأنَّها رأس شيطان.

وجاء «هزَّاع» على حماره، قادمًا من نجع
«السَّلك»، ليحكِّم المباراة، وربط حماره في جذع
شجرة «الجميز»، ووقف في منتصف الملعب، وخيَّر
لاعبينا بين «الملك» و«الكتابة»، واختار «الملك»
لاعبينا، ونفخ «هزَّاع» في صافرته، وبدأت المباراة.

ركل «وفدي» الكرة، وباصاها إلى «النِّيحة»، الذي
أخطأ أوَّل الأخطاء، فبدلًا من أن يركل الكرة إلى
«باكا»، أو إلى «القُبَّة»، أو إلى أي زميل له في الملعب،
ركلها بكل قوّته إلى «عارف» حارس المرمى!

ولم نعرف لماذا هذا الارتداد!

«عـارف»، الآخـر، بـدلًا مـن أن يعطيهـا لزملائـه ليبـدءوا الهجمة، ركلها بكل قوّته، فارتفعت في السّماء، واختفـت، لتظهـر سـاقطةً خلـف مرمـى «اللحايـوة»!

وأمسـك فريقهـم الكـرة، ومال حالنا ولـم يعتـدل، ولم نلمـس الكرة بعد ذلك إلا محض صدف، ودوَّت هتافات ناسـهم وهـم يتمايلـون علـى دقّـات طبولهم، وتصويباتهـم عـلى مرمانا تمـرق حوله مثل أحجار المقاليـع، وتخلخـل فريقنا تمامًا، وصار مثل ستّة أفـرخ دجاج بـين مخالب سـتّة ذئاب جائعة.

لـم يفعـل «عـارف» شـيئًا للكـرات التي اخترقت مرمـاه، و«فصـاد»، و«بـاكا»، داخا مـن كـثرة ما زُوِّغا، و«وفـدي»، و«القبـة»، يجريان مـن غير هـدف، و«النِّيحـة» واقف يشـير بيديـه، ويبرطـم مُقطِّبًا جبينه، بينما هـم يصولـون، ويجولـون، مثل الوحوش الكواسر، وهدير ناسهم، ودقّات طبولهم، وصيحات مزاميرهـم، أوقفت شعر رءوسنا، واهتززنا حزنًا، وجميعنـا نظرنـا، دون إرادة، إلى منـازل نجعنـا البعيـدة، رأيناها تغـوص، وأقـدام فريـق «اللحايـوة» لا ترحـم خجلهـا، وإنَّما تركلها نحـو مرمانا، وتـركل أيضًا قبورنـا الـتي تفتَّـتت، فتسـقط منها جثثنا، وهياكل موتانا العظميَّة، والأكفان تختلط بِـ«عِمَم»

لاعبينا المدعوكة، في الرَّمل، بسبب الأقدام العفيَّة الرَّاكضة، الأقدام التي أخذت تركل كل عزيز لدينا، الأبقار، والنِّعاج، والجاموس، والنِّساء، ورأينا النِّيران تتأجَّج، وتأكل ظهورنا.

وكأن شمسنا تحالفت معهم، إنَّها تسرع للاختفاء خلف الصَّخرة، وهتاف أهل «اللحايوة» صار مثل طنين نحل أسطوريّ يتمدَّد في الفضاء، ويرتد من هنا وهناك إلى آذاننا ويصعقها.

ولم نعرف ماذا نصنع لنتخلص من هذا الكابوس!

كنَّا نتمنى أن نُوقف سيل الأهداف الذي جرف مرمانا، نحلم باللعب المتَّزن، بهجوم جيِّد، حتَّى لو لم نحرز أهدافًا، هجوم يجعلهم يقفون عند حد، ويجعلنا نستطيع التنفُّس.

أمنيات مستحيلة، ففريق «اللحايوة» الآن يلعب بمفرده، و«باكا»، و«عارف»، و«النِّيحة»، و«القُبَّة»، صدورهم تعلو وتهبط، ويسعلون.

كنَّا سنترك أماكننا، ونذهب إلى بيوتنا الغاطسة في الطِّين، عندما رأينا «مرز» يخترق الملعب وهو يجهش بالبكاء، متَّجهًا إلى «النِّيحة» الذي تسمَّر مكانه، ويضربه بكف على صدغه!

بُهِتنا!

و«النِّيحة» لم يفعل أكثر من أنَّه التقط عمامته من الرمل ونفضها، وخرج من الملعب!

زعق «مرز» في الفريق:

- ينعن ديك أبوكم، هاجموا يا ولاد الشَّراميط.

نصف الشَّمس غطس خلف سن الصَّخرة، ودويُّ هتاف أهل «اللحايوة» مثل الرَّعد.

وارتدَّت كرة من صدر «عارف» إلى «مرز»، و«مرز» أعطاها ل-«باكا» وجرى إلى الأمام، و«باكا» باصاها إلى «فصاد»، الذي لعبها، زاحفة، لتصل إلى «مرز»، الذي وجد نفسه وجهًا لوجه أمام مرماهم.

كان يمكنه، ببساطة شديدة، أن يضع الكرة في أي زاوية من زوايا المرمى المفتوح، لكن الذي أذهلنا هو أنَّنا وجدناه يركلها بكل قوَّته، فتنطلق مثل الدَّانة فوق عارضة مرماهم!

صرخنا.

وقفنا على أرجلنا، وأمسكنا رءوسنا.

كانت هذه أوَّل ركلة في اتِّجاه مرماهم منذ أن بدأت المباراة.

أول ركلة.

ورفعنا عيوننا إلى السَّماء، ونظرنا إلى شمسنا نظرة التَّرجي، وجوهنا كانت ترجوها البقاء، ففريقنا بدأ ينقِّل الكرة بين أقدامه بإحكام، و«مرز» لم يكن يلعب، وإنَّما كان يحارب، وفريق «اللحايوة»، لأوَّل مرَّة، يبتعد عن مرمانا، وينكمش أمام مرماه، ورغم ذلك «مرز»، بقدرة قادر، يفوت فيهم، ويحاورهم بكرته، وينفرد بمرماهم، إلَّا أنَّه كان يصوِّب، دائمًا، خارج المرمى!

وخفت دوي أهل «اللحايوة»، وسكنوا في أماكنهم، وأخرجوا سجائرهم، وأشعلوها، وهم ينظرون إلى الجرَّارات الرَّابضة.

وشمسنا لم يبق منها إلَّا حافَّة مضيئة، منيرة، حافَّة اختفت بعد دقيقة، أو دقيقتين.

ونفخ «هزَّاع» في صافرته، وأنهى المباراة.

مضت جموع نجع «اللحايوة» في صمتها، وركبوا جرَّاراتهم التي اختفت بهم في الظَّلام القادم.

مضوا بعد أن تركوا لنا هزيمة ثقيلة، منكرة، سببها ابن الكلب «مرز»، الذي أضاع أهدافًا لا تضيع، ولم يستطع أن يحرز ولو مجرد هدف!

فصل

كان القرموط، في الليل، يتوجَّه دائمًا إلى تلك البقعة من التّرعة التي أضاءتها هذه النّار المتوهِّجة، يتوجَّه إلى هناك ليربض في سكون، ناظرًا بثبات إلى النُّور المتراقص....

الظَّلام ظلام أوَّل الليل، والرِّيح ريح الكرى.

ونحـن متجمِّعـون أمـام حانوت«بـودة»، غارقـون في نـور كلوبـِّه السَّـاطع، نحـكي عـن الـزَّرع والقلـع، ونتكلـم عـن بنـت البنـوت «ماطيـة» الحلـوة، وعـن أحبابهـا وعشَّـاقها، لا تمـر ليلة مـن غيـر الكلام عـن «ماطيـة»، وعيونهـا، وخصرهـا، ودلالهـا، وقـد نسـينا تمامًا هـذا الموضـوع، وصرنـا مسرورين بأحاديثنـا، نضحـك كأنَّنـا شـاربون بحـر «خمـرة»، أو كأنَّنـا آكلـون «قـدح» أفيـون.

لكـن عندمـا جاءنـا «قـرني»، هبـط علينـا الـذي قالـه مثـل صفعـة حـادَّة عـلى الوجـه.

سـكتنا فجـأة، وظلالنـا الـتي كانـت تضطـرب عـلى الـثَّرى في نـور «الكلـوب» تسـمَّرت، وكل واحـد قـال في نفسـه: «مـرز!»

زعق «مهران» في وجه «قرني»:

- بتقول إيه يا عم انت؟!

قال «قرني»:

- قُلنا «مرز» عند الجسر بيصيد....

قطع «ضاحي» كلام «قرني» بصوت عال:

- لا حول الله! «مرز»! «مرز»!؟

ومثلما سكتنا فجأة، انطلقنا فجأة في الضَّحك، ضحكنا ضحكًا لم نضحك مثله من قبل، ضحكنا حتَّى أخذنا نسعل سعالًا كأن في صدورنا الرَّبو، ومسحنا مخاط أنوفنا في أطراف جلابيبنا. وقال «مهران» وهو يُغالب بقايا ضحكه، ماسحًا بطرف كمِّه زوايا عينيه الدَّامعتين:

- يا اخوانَّا «مرز» دا عليه حركات!

المفروض أن هذا الأمر، حقيقةً، صعب على «مرز»، وصعب على عبط «مرز».

فمن منَّا يتخيل أن يصل استهباله إلى حد العبث بحياته؟!

«عناتيل» البلد حاولوا، ولم يقدروا، «فضل»، و«الحر»، و«ضيف»، و«إمام»، وكلهم كادت أرواحهم تروح، فالقرموط متوحِّش، ومتحصِّن

في القنطرة التي تخترق الجسر، والقنطرة طويلة وواسعة، طولها ثلاث قصبات، ويمكن لأطول رجل في نجعنا أن يقف بداخلها براحته، وهي منخفضة عن قاع التّرعة، لذلك إذا غار الماء من كل التّرعة لا يغور من القنطرة، وإنَّما يتبقَّى دومًا منه قدر معقول، فلا يموت هذا القرموط، وعندما يعود الماء إلى التّرعة، وتمتلئ، يعود القرموط لمزاولة أعماله التي تثير الرُّعب في قلوبنا.

لقد كانت جاموسة أخينا «مندور» تتمتَّع بالماء، وهو يغطِّي كل جسدها، وتتمتَّع بنور الشَّمس، وهو يبرق على جلدها الأسود، المبلَّل، وتنعر نعير السعادة، عندما انتفضت، فجأة، وأثارت الماء، وانطلقت إلى الضِّفاف وهي تصخب، بينما دماء غزيرة تتدفَّق من قطع طوله شبر في رجلها الخلفيَّة اليُسرى.

وإوزة «مباركة»، التي رأينا جسدها يطفو بريشه على الماء، خاليًا من الرَّأس، والرَّقبة.

وكلب «موهوب» الذي كان يتشمَّم حشيش الضَّفة، بالقرب من الماء، عندما برز رأس أسود، ضخم، فاتح فكَّيه، ليقبض على ذراع الكلب، الذي

عوى مرعوبًا قبل أن يغوص إلى العمق.

إنَّها مأس من مآسي هذا القرموط الذي لا نعرف له أصلًا ولا فصلًا، ولا نعرف من أين جاء، ولا نعرف متى جاء، والمشكلة التي حيَّرتنا طويلًا هي: «ماذا نفعل؟!»

لقد صار حالنا «مبهدل»، بهائمنا لا نستطيع أن نتركها تنزل إلى التّرعة، طيورنا أيضًا، عيالنا، وحريمنا صرن لا يقدرن على ملء الجرار والأواني، صرن يملأنها من ماء الجداول الضَّحلة، الذي يتعكَّر بالأوساخ من سرعة جريانه على الطِّين، ونضطر إلى أن ننتظر زمنًا حتَّى تترسَّب هذه الأوساخ كي نستطيع شرب هذا الماء، ورغم ذلك كنَّا نشعر بحبيبات الطِّين تحت أضراسنا، وفوق ألسنتنا، وفي حلوقنا.

إن وجود هذا القرموط عمل مشكلة زلزلت حياتنا، وعندما حاول عتاتيل البلد أن يصطادوه، فشلوا... فشلوا!

كانت ليلة!

البدر كان خلف الغيوم، والنجوم خلف الغيوم، والغيوم خفيفة، غيوم صيف، و«الحُر» قال لـ«إمام»، و«ضيف»، و«الفضل»:

- يا عرب.. أنا حاخُش من بحري.. و«إمام» يخش من قِبلي.. وانتو سِدُّوا علينا القنطرة بالشَّبك.. إوعوا يفُك منكم.

وقال لـ«إمام»:

- أوّل ما تلاقيه انزل عليه بالخنجر.. وماتبطَّلشي ضرب فيه حتَّى لو اتمطَّع قُبالك مطيِّع.. سامع الكلام؟ دا قرموط ابن زواني.

الرِّيح في الكرى، والحقول أمام أعيننا ممتدَّة بدكنتها إلى بعيد، حيث الصَّخرة الشَّاهقة، وسنّها المدبَّب يبدو قاتمًا، وشواهد قبورنا تبدو، في النَّاحية الأخرى، ساكنة، مرهبة.

أغلب ناس النَّجع جاءوا ليشاهدوا صيد هذا الوحش، كانت القلوب تدق، وشُعل السَّجائر تتوهَّج وتخبو، تتوهَّج وتخبو عاكسةً ما في الصُّدور من قلق، لم تكن هناك أصوات غير أصوات أقدام «الحُر»، و«إمام»، وهي تخطو في الماء بحذر، أصوات تتضخَّم داخل القنطرة بالصَّدى، فتصلنا عميقة، مريعة.

ومرَّت دقائق لا يثيرنا فيها غير حذر الصَّائد، عندما انطلقت أصوات ضربات عنيفة في الماء،

و«إمـام» يزعـق:

- إلحق يا «حُر».

و«الحُر» يزعق:

- قطّع أمُّه بالخنجر.. إكبس على أبوه.

وسـمعنا القرمـوط ينفـر الهـواء في شـخرة خاطفـة، عاليـة، مثـل شـخرة ثـور عفـيّ يُذبَـح.

وتوالـت الأصوات الصّاخبـة لتصادُمـات الأجسـاد في المـاء الهائج، واهـتزَّت شـبكة «ضيـف» بعنـف، فلمَّها بسرعـة عـلى الجسـد الـذي «يبلعـط» فيهـا، وزعـق «ضيـف»:

- يا ناس يا هوو.. مسكته.

وتدفَّقنا من عـلى الضِّفاف إلى طـين الترّعة لنعـاون «ضيـف»، فجاءنـا صـوت «إمـام» مـن الشَّـبكة متألِّمًا:

- سيبني يا «ضيف» يا أعمى البصر والقلب.

ومـن النَّاحيـة الأخـرى للقنطـرة، اندفـع «الحُـر» خارجًـا، وتسـلَّق انحـدار الضَّفـة ناظـرًا خلفـه بفـزع، ووقـف بيننا مبهوتًـا يتحسَّـس كتفـه اليسرى التي يسـيل منهـا الـدَّم، وقـال مذهـولًا:

- صِـدت يـا اخوانّا قراميـط قـد مـا صِـدت.. وشُـفت قراميـط قـد مـا شُـفت.. مالاقيتـشي قرمـوط زي ابـن الـزَّواني دهـه!

وضحك.

و«إمام» الآخر ضحك، وقال:

- شوّحني بديله على عنقي كان حايجيب أجلي.

وضحك، وفي ضحكته بحّة بكاء.

ومنـذ هـذا الوقـت، عرفنـا أنَّـه لا أمـل في الخـلاص مـن شر هـذا القرمـوط، فمـن هـذا الـذي سـيقدر عـلى مـا لـم يقـدر عليـه العناتيل؟!

«مرز»؟!

مستحيل!

لا يمكن!

الموضـوع أكـبر مـن هبلـه، وأكـبر مـن عبطـه، وأكـبر دليـل عـلى ذلـك هـو أنَّـه يبـدأ الصَّيـد والترّعة تـكاد تفيـض بالمـاء!

شيء غريـب، العناتيـل لـم يقـدروا عـلى صيـده والترّعـة فارغـة، وهـو سـيصيده والترّعة مليئة!

تصرُّفاته غير معقولة، وغير مفهومة، و«مهران» قال:

- يا اخوانًا قوموا ناموا... «مرز» دا ابن كلب.

وتركنا قعدتنا، ودخلنا بيوتنا.

وكنَّا سنضع رءوسنا على الوسائد عندما سمعنا صوت طرقات معدنيَّة تتصاعد في الفضاء.

طرقات يضخِّمُها سكون الليل.

طرقات تتوالى.

طرقة.

طرقة

طرقة.

وبين كل طرقة وأخرى زمن يؤكِّد أن المطرقة ثقيلة.

وانتظرنا أن تنتهي هذه الطَّرقات، خاصةً وأن كل من هو نائم صحا، كل من هو نائم، حتَّى البهائم، لكنَّها لم تنته قطّ، وإنَّما استمرت رتيبة، دءوبة، قويَّة.

اهتزت نفوسنا، فلم نجرؤ على الخروج لمعرفة

سر هذه الطَّرقات، وإنَّما تمدَّدنا على فرشنا حتَّى غلبنا النَّوم.

وعندما صحونا كانت الطَّرقات ما زالت تدوِّي في الفضاء، إلَّا أن ضجيج العصافير، والطيور، ونباح الكلاب الفرِحة بالنُّور خفَّف من حِدَّتها.

وعندما طلعنا ببهائمنا إلى الحقول، ومررنا على الجسر، دُهشنا.

كان «مرز» يقبض على مطرقة ثقيلة بكلتا يديه، يرفعها ويهوي بها على طرف سيخ حديدي غليظ مغروس في الماء، كان راكبًا طوفًا من جذوع النَّخيل.

ووقفنا، ببهائمنا، ننظر باستغراب للذي يفعله «مرز». وهو رغم الضوضاء التي عملناها لم ينظر إلينا حتَّى مجرد نظرة، كان منهمكًا في الطَّرق على طرف السِّيخ، ومضينا ونحن نتساءل: «هل هكذا سيصيد القرموط؟!»

وتمضي الأيَّام، وأصوات الطَّرقات تتضخَّم في سكون الليل، وفي ضجيج النَّهار تخفت، لكنَّها لا تتوقَّف أبدًا، واعتدنا عليها، لم تعُد مُزعجة، صارت طبيعيَّة، مثل وشوشات النَّخيل، وصياح الدِّيكة، وأذان الشَّيخ «قرون»، اعتدناها، واعتدنا

رؤية «مرز» وهو يدق الأسياخ الحديديَّة في الماء، حتَّى إنَّنا صرنا لا نراه، لم يعُد الذي يفعله غريبًا، خاصَّة وأن شيئًا لم يتغيَّر، فنحن كما نحن، والتّرعة كما هي، والقرموط موجود بكل شرِّه، و«مرز» موجود بكل عبطه.

الشَّيء الوحيد الذي كان يتغيَّر، هو السِّياج الحديدي الذي يصنعه «مرز»، إنَّه يمتد زاحفًا إلى الضفَّة الأخرى للتِّرعة، حتَّى جاء اليوم الذي اكتمل فيه فعلًا! وبدت الأسياخ البارزة، والماء يتسرَّب من بينها، شيئًا غريبًا مبهمًا، وبدا «مرز»، وهو يبدو في عمل سياج آخر رجلًا غريبًا مبهمًا، إلَّا أن الأمر اختلف قليلًا بالنِّسبة لهذا السِّياج الجديد.

لقد لاحظنا، في رواحنا إلى الحقول صباحًا، وجود دخان كثيف ينبعث من كومة رماد هائلة بجوار السِّياج الأوَّل.

وتسلَّلنا، في الليل، لنعرف ما الذي يفعله بالنَّار، ووجدناه لا يفعل بها شيئًا، كان كل الذي يفعله بها أنَّه يتركها تتوهَّج بينما يدق أسياخ سياجه الجديد!

وبدا لنا «مرز» في نشاطه، والنَّار تعكس حمرتها عليه، كأنَّه عفريت من عفاريت نبيِّنا «سُليمان».

وجرت الأسابيع، والسِّياج الثَّاني يأخذ في الاكتمال، وطرقات المطرقة الثَّقيلة لا تنقطع، وماء التّرعة يتَّجه إلى النُّقصان، حتَّى جاء اليوم الذي لم نتصوَّر أنَّه سيجيء.

الشَّمس ساطعة، نشيطة، النَّهار يتلألأ، الطَّرقات المعدنيَّة، لأوَّل مرَّة منذ شهور، ينقطع صوتها تمامًا، وكنَّا نجرُّ بهائمنا السَّعيدة بالرَّواح إلى الحقول، عندما مررنا على الجسر، وكالمعتاد، نظرنا إلى «مرز»، وسياجيه الحديديَّين، نظرتنا اللا مُبالية، فرأينا الذي هالنا.

التّرعة خالية من الماء، وبين سياجي «مرز» ربض القرموط المتوحِّش ساكنًا تمامًا!

تزلزلت قلوبنا لمرأى القرموط.

كان ضخمًا في حجم برميل من براميل الجاز، الذي نُدير به ماكينات الرَّي، و«مرز» واقف على الضفَّة الأخرى ينظر إليه متحدِّيًا.

تركنا بهائمنا، ووقفنا على الضِّفاف غارقين في الدَّهشة، كل شيء بدا لنا في هذه اللحظة مُدهشًا.

القرموط الذي جعلنا نكره عيشتنا ساكن سكون الموتى!

«مرز» الأهبل يقف شامخًا مثل الصَّخرة!

عناتيل البلد وقفوا مبهورين!

لقد عمَّنا السكون، فلم نعد نسمع سوى صوت أنفاسنا، و«مرز» بثقة نزل إلى قاع التّرعة، حيث القرموط المستسلم، كانت رجلاه تنغرسان في الطِّين السَّائب فيخرجهما بصعوبة، وكانت ذراعاه تدوران حول جسد القرموط، محاولًا سحبه إلى قرب انحدار الضفَّة، عندما قفز القرموط فجأة، ونط بجسمه إلى أعلى، فارتفع حتَّى ظننا أنَّه سيطير، ثم هبط بكل ثقله على الطِّين السَّائب، فتناثر علينا، وعلى جلابيبنا، وأغرق وجه «مرز»، الذي وقع على ظهره من شدَّة المفاجأة.

كان منظر «مرز»، وهو يصارع القرموط، محاولًا إخراجه إلى الضِّفاف، ومحاولًا في الوقت نفسه الهروب من ضربات ذيله، ومن حِدَّة حركات جسده المرن، مضحكًا، مضحكًا جدًّا، وحاولنا أن نمسك أعصابنا فلم نقدر.

ضحكنا.

قهقهنا.

و«مرز» كان يتسلق انحدار الضفة مرعوبًا من ضربات القرموط الفطسان من قلة الماء، عندما نظر إلينا، وزعق:

- يا ولاد القحبة!

فصل

لقـد قـال لنـا أخونـا «بـدر» أنَّـه رآه يلعـق كل جسـدها، مثـل كلبـة تلعـق جروهـا. لقـد قـال «بـدر» هـذا الـكلام فعـلًا مـن قبـل، ولـم نصدِّقـه...

وحريمنا لا ينتظرن منّا أن نقول لهن كلام الحب، فالحق أنَّ نطق هذا الكلام صعب علينا، فنحن نعرف أن وجوهنا التي قدَّدتها شمسنا الحارَّة، ليست وجوهًا تصلح أفواهها لنطق مثل هذا الكلام، وعيوننا التي شربت قسوة الأرض لا تعرف كيف تنظر إليهن النَّظرة النَّاعمة، وأيادينا التي شقَّقتها أخشاب مقابض «الطَّواري»، و«المناجل»، ستجرح جلودهنَّ إن تحسَّستهنَّ.

خلاصة الكلام، إنَّنا بظروفنا هذه لا نصلح لأن نكون عشَّاقًا، ولكن عندما يشعرن، في بعض الليالي، أنَّنا نريدهن، فإنَّهن ينتظرن منَّا أن ننطق فقط بكلمة ما تكون شفرة.

وشفرة حبِّنا جافَّة مثلنا، فأحدنا مثلًا يقول لزوجته:

- قومي البسي هدومك المقطَّعة.

يخجل من أن يقول لها برقَّة: قومي البسي قميص

الـنَّوم «يا روحي»، أو «يا حبِّي»، أو «يا حياتي».

لـو قـال هـذا الـكلام سـتتهدَّم الدُّنيـا، ويمـوت تحـت ركامهـا، وسـتنظر لـه زوجتـه نظـرة خـوف عـلى رجولتـه الـتي قـد يدهسـها هـذا الـكلام الرَّقيـق.

وواحـد آخـر شـفرته أن يقـول لزوجتـه في ظـلام الليـل الدَّامس:

- عايز أشتغل.

ولا شغل في الليل غير شغل الليل!

وتعـرف زوجتـه مـا الـذي يريـده، لذلـك إذا كانـت نائمة عـلى جنبهـا تنسـدح عـلى ظهرهـا، وتسـحب طرف جلَّابيتهـا إلى صدرهـا، وتقـول لـه: «قـوم اشـتغل».

شـفرات حـادَّة مـن هـذا القبيـل، هـذا هـو حبُّنـا لحريمنـا، وحريمنـا أيضًـا يحببننـا هكـذا، فإنَّنـا نظـل نفـرك فيهـنَّ، ونطحنهـنَّ عـلى الأسِرَّة النُّحاسـية، وعـلى الدِّكك، أو عـلى المصاطـب، فـلا نسـمع سـوى طقطقة خشـب الـدِّكك، أو خبـط حديـد الأسِرَّة، أو اصطـدام عظام رُكبنـا، وأكواعنـا، بطين المصاطـب الجـاف، أمَّا هـنَّ فبالـكاد نسـمع صـوت تنفُّسـهنَّ.

وعندمـا نـنزل مـن فوقهـنَّ، نلعنهـنَّ، ونلعـن لحظة

الضَّعـف الـتَّي اضطرَّتنـا لمثـل هـذا الشُّـغل، ثـم نتـدارى تحـت الأغطيـة.

هـذه هـي طريقتنـا في الحـب، ولـم نعتقـد أن هنـاك طريقـة أخـرى يمكـن أن يعملهـا أحـد منَّـا، حـتَّى جـاء «فـزَّاع» وهـو يجـر بقرتـه، ووجهـه متعكِّر، وزعـق:

- يا سبحان الله!

كنَّـا جالسـين في أمـان اللـه أمـام بيوتنـا، والشَّـمس القائظـة تسـتدير للمغيـب خلـف الصَّخـرة المهولـة، والماء البـارد الـذي رشـشناه أمـام بيوتنـا يرطِّـب الهواء، و«رُوح» سـأل «فـزَّاع» عـن سـبب تسـبيحه الغاضـب فقـال:

- هُوَّ حد كفَّر إيمانًا غيره؟!

فقال «روح»:

- مين؟ «مرزه»؟!

قال «فزَّاع»:

- هُوَّ ابن الكلب!

فقال: «روح»:

- عمل إيه تاني واكل امُّه؟!

«فزَّاع» ضرب الهواء بذراعيه، وصرخ:

- اللي عمله ما يتحكيش.

ثم قال:

- أقولِّكم.. تعالوا معايا.. يمكن يكون قاعد على حاله الوضْح.

ومضينا وراء «فزَّاع».

وانحدرنا «نزلاية» غرب النجع وراء «فزَّاع».

وقطعنا الطَّريق الضيِّقة، القصيرة، التي بين الحقول وراء «فزَّاع».

وقبل أن نصل إلى مقابرنا استدرنا إلى اليمين، ومشينا على ضفاف التّرعة «المُرَّة» حتَّى وصلنا إلى المصرف الضَّحل الذي تُطل عليه «السَّباتة» التي يسكن فيها «مرز» و«جوهرة».

ووقف «فزاع».

ووقفنا مثله.

ونظر إلينا، وهمس:

- هششششش.. بشويييييش.

وتسحَّب مثل الأفعى إلى كرْم النَّخيل الذي يمتد

وراء «السَّباتة»، وتسحَّبنا خلفه مثل سرب أفاعي.

كَرْم النَّخيل شاسع، وتقف فيه عشرات من أشجار النَّخيل السَّامقة، والشَّمس واقفة على بُعد شِبر من سِن الصَّخرة العملاقة، صفراء، ساطعة، وظلال النَّخيل على الأرض متقاطعة، متشابكة، والتُّراب الذي يقع عليه اصفرار الشَّمس لا يبدو ترابًا، وإنَّما أكوامًا من الذَّهب.

وقف «فزَّاع»، وأشار بسبَّابته إلى جذع نخلة عريض، يمثِّل ملتقى سيقان ثلاث نخلات ضاربة في السَّماء، جذع يشبه وكر النُّسور، و«مرز» جالس في الوكر، أمامه «جوهرة».

«مرز» ظهره للشَّمس، و«جوهرة» وجهُها يُضيء في مواجهة الشَّمس، يحسِّس بيده على شعرها المنسدل، ورقبتها المرمر، وهي تميل برأسها وتضحك، وهو يميل برأسه إليها ويقبِّلها! وشفتاه تنزلان من فمها إلى نحرها، إلى أعالي ثدييها، وبذراعيه يحيط خصرها ويضمُّها!

ونحن تأجَّجنا.

تأجَّجنا.. تأجَّجنا غضبًا!

الشَّمس تنزل وراء سن الصَّخرة، و«مرز» منهمك

في التَّقبيـل والتَّحسـيس!

قلنا: رجل قليل الأدب!

وقلنـا: ربمـا ليـس عنـده للنسـاء أكـثر مـن التَّقبيـل والتَّحسيس، فلـو عنـده أكثر لما عمـل الـذي يعمله، ولعمـل الـذي نعمله.

أضـواء الغـروب الأخيـرة تسـحَّب من نجعنـا، و«مرز» يحبحـب في «جوهـرة»، والأفـق يحمـر، ويتشـكَّل مثل فراشة عملاقـة قانيـة، واقفـة علـى ستارة ناريَّـة هادئة.

فجـأة وقـف «مـرز»، وتلفَّـت حولـه، ثـم بـدأ يخلـع ثيابـه، ثيابـه كلهـا، و«جوهـرة» تخلـع «جلَّابيتهـا» عـن جسـدها وهـي تتثنَّـى، وتتلـوَّى، كمـا لـو كانـت بنتًـا مـن بنـات الهـوى في الموالـد!

«مرز» العـاري ضغـط علـى كتفـي «جوهـرة» العارية فاستلقت علـى ظهرهـا، وبعـد ذلك...

بعد ذلك!

بعـد ذلـك عمـل «مـرز» الـذي لا يُحـكى فعـلًا، كما قـال «فـزَّاع».

لقـد مـدَّ يديـه إلى ركبتيهـا، ثـمَّ بهـدوء باعـد بـين سـاقيها... و...

و... و....

باه.. باه... بااااه....

به به به به!!!

يخرب بيت «أبوك» يا «مرز»!

فصل

ضربها بالمنجـل واسـتدار ليجـري، لكنَّها أحاطتـه بجناحيهـا، ورقـدت عليـه، واسـتراحت...

صباح مبهج بالنِّسبة لأطفالنا، هذا الذي يسمعون فيه أزيز الطَّائرة، إنَّهم يفتحون البوَّابات، وينطلقون صائحين صيحات الفرح إلى حدود الحقول، حيث ينفتح المدى، وتتَّضح الرُّؤية.

هناك يرون طائرة رش المبيد تزحف على الغيطان، تكاد تلامس نوَّار القطن النَّاصع الاصفرار، تزحف وهي تنفث خلفها المبيد في شكل دخان أبيض كثيف، تزحف مقتربةً بسرعة البرق من بيوتنا، وتبدو في اقترابها وكأنَّها ستصطدم بها، وأطفالنا يهرعون مُبتعدين، لكنَّها فجأة ترتفع فوق رءوسنا، فنلمح بطنها الحديدي الأملس مثل بطن ضفدعة، وأزيزها الهادر يضرب حمامنا فيختبئ في أعشاشه، والماعز يتقلقل في الحظائر، ويعلو ثغاؤه، وهو ينظر إلى السَّماء بعيون مملوءة رعبًا، والعصافير، وهي تتنقل بين الأشجار، تدوِّخها رائحة المبيد المعربدة في الجو، فتقع على الأرض، ليجري أطفالنا خلفها، يلتقطونها بسهولة، ويملأون بها «حُجور»

جلابيبهم، وينطلقون إلى البيوت، وبسعادة ينزعون بأياديهم الصَّغيرة رؤوسها عن أجسادها، وبسعادة تشويها نساؤنا في النِّيران، وبسعادة نلتهمها.

وعندما ينتهي يوم رش المبيد، نذهب إلى حقولنا في اليوم التَّالي، وفي ذهابنا إليها نمر على ضفاف التِّرعة «المُرَّة»، فنرى السَّمك طافيًا على المياه، ميتًا بأعداد لا حصر لها ولا عدّ.

وبين أشجار القطن الصَّغيرة، نرى مئات العصافير مُلقاة، وراكدة، وعشرات من طيور الحمام الجبلي، والقمري، والهداهد، والقرادين، والغربان، والبوم، نائمة على ظهورها متيبِّسة، عيونها مفتوحة، وسوائل لزجة، متسرِّبة من جوانب مناقيرها.

وتبقى، بعد ذلك، مطالع أيامنا مملَّة وكئيبة، فلا شقشقات، ولا هديل، ولا نعيب، ولا صياح، وإنَّما سكون.

فقط سكون.

سكون، ضارب، يتمكَّن من نجعنا أسابيع طويلة.

سكون تمحوه، رويدًا رويدًا، عصافير، وغربان، وقرادين أخرى جديدة، طيور وافدة، تبدأ من جديد صناعة البهجة.

والبهجة تملؤنا ونحن نزرع القمح، فالقمح نعمة الله، نعمة الله المباركة، التي لا يقتلها دود، أو سوس، طالما هي خضراء في الحقول، نعمة الله التي لا تحتاج إلى طائرة رش المبيد.

وكنَّا نحصد الأشجار الذَّهبية بفرح، عندما تسلَّل إلى آذاننا طنين بعيد، طنين بعيد متواصل، وتركنا مناجلنا، ووقفنا ننظر تجاه مَقدِم الطَّنين، وهناك، في أفق «الطُّليحات»، رأينا في السَّماء نقطة فضِّية تلمع، نقطة أخذت تكبر ببطء مُتسارع، وأخذ الطَّنين يعلو، والنُّقطة اتَّضحت بعد أن كبرت، فبانت لنا طائرة تهبط تدريجيًّا، وتعجَّبنا في نفوسنا: «لماذا هذه الطَّائرة؟!»

فالقمح لا يحتاج إلى مبيدات، وحتَّى لو افترضنا أنَّه يحتاج، فهل سيحتاج المبيد في وقت الحصاد!

استغربنا الأمر جدًّا، لكن الطَّائرة لم تحفل بنا، ولا بدهشتنا، وإنَّما كانت تقترب، وتقترب، وتهبط، وتحوَّلت من مجرد نقطة في الأفق إلى حجم عصفور، ومن حجم عصفور إلى حجم حدأة، ومن حدأة إلى نسر مجنَّح، ودويُّها تحوَّل من طنين إلى نعير، ونعيرها أصابه الجنون فعربد في آذاننا، واخترقها إلى

صدورنا، فرفرفت قلوبنا، والطَّائرة تتدنَّى إلى الأرض، وتتدنَّى، وشكلها اتَّضح لنا تمامًا، لم تكن تشبه أبدًا طائرة الرَّش التي تظهر مع ظهور نوَّارات القطن.

هذه الطَّائرة ضخمة، ضخمة جدًّا، لونها فضِّي برَّاق، يدور حولها شريط عريض أخضر، تخترقه مربَّعات زجاجيَّة!

لم نفهم!

وتساءلنا: «هل كل هذه الطَّائرة موجودة الآن لترش المبيد على القمح الذي نحصده؟!»

وواصلت هبوطها.

هبطت جدًّا!

وبينما كنَّا نزعق، ونصرخ بأنَّها ستقع، وقعت فعلًا!

وقعت على بطنها، وزحفت على القمح الذَّهبي الذي يشكِّل بساطًا حريريًّا لا نهاية له، وانفجر الغبار خلفها، وعوت، وأجنحتها الطَّويلة، السَّميكة، مثل مناجل عملاقة تقصف جذوع النَّخيل، وتحش أغصان الأشجار.

بدت، في زحفها، مثل جراد متوحِّش، يلتهم

الحقول، ويتوجَّه إلى بيوتنا!

وعاصفة تراب غبرت السَّماء، وأشعَّة شمسنا الوهَّاجة تنعكس على جسم الطَّائرة المعدني إلى عيوننا اللامعة المشدوهة، وأسراب العصافير، والقراديـن، والغربان، حلَّقت في الهواء مذعورة.

في طريقها إلى بيوتنا، اصطدم جناحها الأيمن بجذع شجرة «السنط» العتيقة، الرَّاسخة في أوَّل طريق «السَّد»، فانحرفت عن بيوتنا قليلًا، لتتَّجه مباشرة إلى حقولنا، وبالتَّحديد إلى حقل «مندور»!

بتحديد أكثر، إلى «مندور» نفسه، الواقف متجمِّدًا مثل تمثال!

زعق «هديَّة»:

- يخرب بيت ابوك على بيت امَّك يا «مرز»!

وللوهلة الأولى تعجَّبنا من «هديَّة»، فما الذي يدعوه لسبِّ «مرز» في مثل هذه اللحظة!

لكن ما إن طرحنا السُّؤال على أنفسنا حتَّى تذكَّرنا!

تذكَّرنا!

وضمتنا!

فالأمـر في منتهـى الغرابـة والعجـب، الأمـر مذهـل جـدًّا

لقد بـدت الطَّائرة، فعـلًا، قبـل سكونها، وهـي تميل في زحفهـا يمينًـا، وتميـل يسارًا، ومقدِّمتهـا تعلـو وتهبط، مثـل كلـب هائـج يتشـمَّم أثـر غريمـه، وعندما صـارت في مواجهة «منـدور»، بـدت وكأنَّهـا تقطِّـب جبينهـا، وبـدا «منـدور» عبيطًـا وهـو يتخلـص مـن جمـوده، ليميـل إلى الأرض ويقبـض عـلى منجلـه، ويقـذف بـه نحـو الطَّائـرة الزَّاحفـة باتِّجاهه.

فالطَّائرة لـم تبـال، وإنَّما واصلـت زحفهـا المتباطئ، وداسـت عليـه كمـا يـدوس الثَّـور عـلى بيضـة يمامة.

دهسته، ودمه طار في الهواء مثل رذاذ!

«مستحيل!»

هذه هي الكلمة التي تأجَّجت في صدورنا.

«مسـتحيل»، كل هـذه السَّـماء، بـكل مـا فيهـا مـن عظمـة وجـلال، تـلـبِّي فـورًا طلـب رجـل معتـوه مثـل «مـرز»!

السَّماء، بـكل عظمتهـا وجلالهـا، تلـبِّي طلـب رجـل لا يصـلي، ولا يصـوم!

السَّـماء، بـكل عظمتهـا وجلالهـا، تسـتجيب لرجـاء رجـل ليـس وراءه سـوى «الكمنجـة»، و«الحبحبـة» في زوجتـه، والنَّـوم عليهـا علنًـا في كـرْم النَّخيـل!

لقـد كنَّـا جالسـين أمـام دكَّان «بـودة»، عندمـا جـاء «حـرُّوك» وأخبرنـا بدعـاء «مـرز» عـلى «منـدور»، وقتهـا غرقنـا في الضَّحـك، وكادت صدورنـا تتطبَّـق مـن قسـوة هـذا الضَّحـك.

فهـل يوجـد في الدُّنيـا عاقـل يدعـو عـلى أحـد بـأن تدوسـه طائـرة!

طائرة!

العاقـل يطلـب مـن السَّـماء أن تـدوس غريمـه سـيَّارة، لـوري، قطار.

أي شيء يدبّ على الأرض... لكن طائرة!

والسَّماء بكل عظمتها، وجلالها، تلبِّي!

فصل

نظـرت إليـه وأغلقـت عينيهـا، وصَمَـت بينمـا دمعـه يولـول، وعصفـور، شـارد، وقـف عـلى أوتـار «الكمنجـة» ونقرهـا، فانبعثـت نغمـة مُلتاعـة....

أي واحـد منَّا لـو مـات لـه عزيـز، لـن يفعـل أكـثر من البكاء والنَّحيـب، ربما يعلـو صوتـه لاعنًا الفقـد، ربمـا ينظر إلى السَّماء بضيـق، ويعاتـب اللـه، لكـن لـن تزيـد أفعالنا عـن البـكاء والنَّحيـب.

نسـاؤنا تزيـد أفعالهـن، يلطمـن خدودهـن، ويضعـن الطِّيـن عـلى رءوسـهن، ويتمرَّغـن في الـتُّراب، ويقطعـن أرديتهـن، وأصواتهـن تمـزِّق الهـواء، وتنطلـق إلى السَّـماوات العُـلا، وربمـا يجريـن خلـف المحفَّـة، ويتشـبَّثن بهـا، في محاولـة يائسـة لإيقـاف سـيرها، واختطـاف الميِّـت، وإعادتـه إلى بيتـه.

وفي «الجبَّانـة»، قـد يبـكي الرِّجـال وهـم يـرون القبر يبتلـع الفقيـد بسرعـة غريبـة، وقـد يزعقـون:

- مع السَّلامة... مع السَّلامة.

- انت سابق واحنا لاحقينك.

- اطَّمن عَ اللي وراك يا خال.

وتمـر الأيَّـام، وتذهـب حـرارة المـوت، وتـأتي بـرودة

النِّسيان، ونجد أن كل ما عملناه، وكل ما عملته نساؤنا، ليس فيه الغريب، أو العجيب، فالموت قاس، وأفعالنا المنفلتة بالحزن هي صدى يناسب هذه القسوة.

لكن لَمَّا جاءت «يامنة»، في المغارب، ولطمت خدودها أمامنا ونحن جالسين عند دكان «بودة»، وولولت، وقالت:

- جوهرة ماتت!

توقَّعنا أن كل الغرائب، والعجائب، ستتجلَّى في ردود أفعال «مرز».

وتساءلنا ونحن ذاهبين إلى سباته، لتخريج الجنازة، عن الذي سيفعله، فقال «كرم» إنَّنا سنجده جالسًا تحت جذع النَّخلة يدخِّن «الجوزة» في برود.

وقال «هليِّل» إنَّنا سنراه جالسًا في حقل زهوره يتأمَّل الطبيعة.

وقال «زغلول»:

- والله دا ابن كلب... ماتستبعدوشي تلاقوه واقف فوق جثِّتها بيغني.

ومشينا ونحن نقول: «يا ستَّار استر».

وحريمنا وراءنا، تتقدَّمهن «يامنة»، يخترقن الحقول، تسبقهن صرخاتهن، وشمسنا ناصعة الاصفرار ذاهبة إلى خلف سن الصَّخرة، وأسراب الغربان النَّاعقة عائدة إلى مساكنها في شواشي النَّخيل التي تُحيط بسباتة «مرز».

وصلنا إلى حافَّة الكرم، فوجدنا السَّباتة غارقة في السُّكون، ووجدنا «مرز» واقفًا يتطلَّع إلينا، ودموعه تملأ عينيه!

وحريمنا، لمَّا رأوه، جرين نحوه، والتففن حوله يعزِّينه.

كان عزاؤهن له مثل أي عزاء تقدَّمن به من قبل لأي مُلتاع فاقد، فهن لم يزدن عن لطم خدودهن، وزعيقهن:

- يا خراب بيتك يا «مرز».

- يا وحدتك من بعدها يا فقري.

- يا طريقك اللي انطفا نوره.

«بووووو... بووووووووووو... بووو».

«مرز» لم يتقبَّل هذا العزاء، وإنَّما رفع يده على حريمنا، وزعق:

- عليًّا الطَّلاق لاضرب اللي تصرَّخ.

صرخت «يامنة»:

- مسكين يا «مرز».. يمينك واقع.. مرتك ماتت.

هـاج «مـرز»، وضرب حريمنـا، وهـن جريـنَ بـين النَّخيـل، وبعضهـن اندفـع إلى داخـل السَّباتة، حيث ترقـد الجثَّـة، وهـو يجـري وراءهـن، ونحـن، بعـد جهد، أمسكنا بـه، وأجلسناه عـلى الأرض، ونظر إلينا، وزعـق:

- عليًّا الطَّلاق من «جوهرة»......

وتهـدَّج صوتـه، وسـالت دموعـه وهـو ينطـق كلمة «جوهـرة»، ومسـح دموعـه بكـم جلبابـه، وصرخ منتحبًا:

- عليًّا الطَّلاق اللي يقولِّي «جوهـرة» ماتت راح اتف عـلى خلقته.

ونحـن تحمَّلنـاه، نعـرف أنَّـه كان يعزّهـا، وكـرم النَّخيـل، وملتقـى الثَّـلاث نخـلات الضَّاربـة في السَّـماء يعرفـان أنَّـه كان يعشـقها، هـي نصرتـه دائمًا، لـم تنـس قـطّ أنَّـه أنقذهـا مـن الذَّبـح عـلى يـد أبيهـا «حومـة»، لذلـك لـم تكـن تـرى أن تصرّفاتـه غـير المعقولـة غـير معقولـة، أو غـير مفهومـة.

وكان النـور قـد ذهـب عندمـا خرجـت في لفائفهـا البيضـاء، عـلى «محفَّـة» مُسـطَّحة، معمولـة من جريد النَّخـل الجـاف، خرجـت ممـدَّدة، سـاكنة، تهـتز فقـط مـع اهـتزازات أكتـاف الحامليـن.

صراخ الحريـم اخـترق نبـات الحقـول، وشـواشي النَّخيـل، فعـوت الـكلاب، ونعقـت الغربـان.

«يامنة» صرخت:

- ردُّوا البوَّابة يا خيَّاتي قالت مش راجعة تاني.

«بووووووو... بووووووووووووووووووو... بوو».

انهـار «مـرز»، وقعـد عـلى الـتُّراب، وأخـذ يـضرب رأسـه بكفَّيـه، وينتحـب:

- يا بَيْ.. يا بَيْ.. يا بَيْ.. يا بَيْ.

مِلنـا بالمحفَّـة إلى الطَّريـق المؤدِّيـة إلى الجامـع لنصلّي عـلى الميتـة، وكان الظَّـلام قـد بـدأ يطغـى، وأطـراف جلابيبنـا تخبـط سـيقاننا بعنـف مـن سرعـة هرولتنـا.

في الجامـع، أرحنـا المحفَّـة بالقـرب مـن «المحـراب»، والشَّـيخ «قـرون» أحـرق الظَّـلام باللهـب الطَّالـع من رءوس اللمبـات «العويـل» ممزوجًـا بخيـوط الهبـاب،

وأردنا أن نقيم صلاة الجنازة، لكنَّنا افتقدنا «مرز»، وبحثنا خارج الجامع، وعند «الرَّهبة».

لم نعثر له على أثر.

قلنا للشيخ «قرون» نُصلِّي بدونه، فنحن نعرف أن «مرز» دائمًا يسوق العبط، وربما يسوقه هذه المرَّة، فنبقى منتظرين حتَّى تتعفَّن الجثَّة!

لكن عندما كبَّرنا تكبيرتنا الأولى، لاحظنا بأطراف عيوننا «مرز» يدخل الجامع، ويخترق صفوفنا، ويمرق أمام الإمام، ويقف بجوار المحفَّة وفي يده الك-...!

الكم-...!

الكمن-....!

معقول!

هل يفعل هذا؟ في الجامع!

لقد دخلنا الصَّلاة وانتهى الأمر، ولن نستطيع الخروج منها إلَّا بانتهائها، وكنَّا نكبِّر تكبيرتنا الثَّالثة عندما عملها فعلًا، وصدحت الأنغام!

أنغام حزينة.

أنغام حزينة حزينة، أنغام دامعة، مولولة، آنَّة، أنغام شاربة من الحزن ومرتوية.

وبُهتنا في صلاتنا، وقلنا في نفوسنا: «كمنجة في الجامع؟!»

و«مرز» غارق في العزف، ويده اليمنى ذاهبة، آتية، على الأوتار، والأنغام تروح، وتجيء، بأحزانها بين جدران الجامع، التي كانت تحمل أشباح ظلالنا المرتعشة بفعل الأنوار المهتزة، وبدا لنا، في هذه اللحظة، أنَّنا لسنا في عالمنا، وإنَّما في عالم مسحور، وأن «جوهرة» لا بُد وأن تُجيب هذه الأنغام الرَّاجية، وتعود مرَّة أخرى للحياة، ورأينا ارتعاشات العودة واضحة في لفائفها، واستعددنا لقيامها!

لكن صوت الشيخ «قرون» جعلنا نعود من وهمنا، وجعل عقولنا تعود من شتاتها.

الشيخ «قرون» يزعق في «مرز» وهو يخطف الكمنجة منه:

- يا ملعون يا ابن الملعون.. تمزِّك في الجامع؟

وهجمنا على «مرز»، ودفعناه إلى خارج الجامع، وزعق «كرم»:

- دي رايحة لربنا.. وطالبين لها الرحمة.. والله لو مشي ابن الكلب دا في جنازتها ما هاتشوف وش الكريم في ليلتها.

وعندما حملنا «المحفَّة»، واتَّجهنا بها إلى الطَّريق المؤدِّية إلى الجبَّانة، حاول «مرز» أن يندفع بيننا، لكن «الغول»، و «إمام»، أمسكا به ومنعاه، وقبل أن نختفي بالمحفَّة في المنعطف، فرفط «مرز» بين أيديهما، وزعق:

- يا «جوووووهرة».

كانت صرخة قويَّة، راجية، وسرعة المحفَّة هدأت، ووجدنا أنفسنا نسير ببطء، و«مرز» صرخ صرخة أخرى آمرة:

- يا بت يا «جووووهرة».

وكأنَّنا سمعناها تقول «نعم»!

إذ إن المحفَّة ثقلت حتَّى صارت مثل جبل لا يمكن زحزحته! ثقيل ثقيل، وجذوره في سابع أرض، ولم نستطع الاستمرار في حملها، فأنزلناها من على أكتافنا، و«مرز» استغل دهشة «الغول»، و«إمام»، فأفلت منهما، وجاء يجري إلى المحفَّة، ووقف فوق الجثَّة، ونظر إلينا نظرتنا إلى الضَّفادع، ومال إلى

المحفَّة، ورفع الجثَّة الملفوفة في أكفانها على كتفه، وانطلق بها إلى سباته!

وصاح «الحر»:

- إيه.. واخدها على فين البنى آدم ده؟!

فزعقنا فيه:

- ياخدها مطرح ما ياخدها.. يغور بيها.. إذا كانت حتَّى وهِيَّا ميِّتة بتسمع كلامه!

فصل

كيف أتته كل هذه القسوة؟! يفتح بطنها بالسِّكين،
ويُخرج أحشاءها! لقد توحّش، توحَّش.....

المفاجآت في المغارب.

وفي مغـرب الأمس جلسـنا أمـام دكَّان «بـودة»، ودخَّنَّا «الشَّـيش»، وشربنـا شـايًا ثقيـلًا مـرًّا، دخَّنَّـا «الشَّـيش» وشربنـا الشَّـاي الثَّقيـل المـر ونحـن نشـعر بالزَّعزعـة، فالـذي فعلـه «مـرز» حطَّمنـا، وقلَّـل قيمـة حياتنـا.

إنَّه يهرِّج، وقيمتنا تتدنَّى بتهريجه.

لقـد وقفنـا مثـل أعجـاز نخـل محروقـة عندمـا خطف جثَّـة «جوهـرة» منَّـا، وجـرى بها إلى سباتته.

لطمنـا لطمـة شـديدة لـم نسـتطع تفاديهـا، بأفعالـه هـذه كأنَّمـا يـنزع عمائمنـا مـن عـلى رءوسـنا ويدعكهـا في الـتُّراب، ونحـن لا نسـتطيع فعـل شيء!

فماذا نفعل مع رجل كلُّنا يعرف أنَّه عبيط وأهبل!

لكنَّنـا رغـم ذلـك نشـعر بالمهانـة، ونشـعر بالعجـز، ونشـعر بالمـرارة الشَّـديدة، مثـل المـرارة المخبـوءة في الشَّـاى الأسـود الـذي أعطـاه لنـا «بـودة»، وكنَّـا نتجرَّعـه عندمـا جـاء «ليـل» صامتًـا، وقعـد بيننـا صامتًـا،

منكمشًا، طلبنا له شايًا ليهلّل مثل كل مرّة، فلم يهلّل، ورأينا وجهه مصفرًّا، فعرفنا أنّه لا بُد قد حدث له شيء.

عندما سأله «صيام»، عن هذا الشيء، قال بصوت مخنوق، رفيع، مثل صوت فأر مذعور:

- «جوهرة»!

ضربت كلمة «جوهرة» كرامتنا، فقلنا في نفوسنا:

«قَطعة تاخدك يا ليل انت وجوهرة في ليلة واحدة».

قال «ليل»:

- معدّي في العصاري على المصرف.. وبابُصّ على سباتة «مرز».. لقيت «جوهرة» قاعدة عَ المصطبة!

كانت شمسنا الدّافئة متعلّقة على سن الصّخرة، ونورها الأحمر يضرب جدران البيوت فتتوهّج بالحُمرة، ويضرب شواشي النّخيل فتتوهّج بالحُمرة، وقِطَع الغيم الضّئيلة تبدو كخراف، مهولة، متوهّجة بالحُمرة، وشَعر رءوسنا انتصب فصار شوكًا، وجلودنا ارتعدت من كلام «ليل».

فكيف تموت «جوهرة»، قبل ليلتين، وتقعد

اليوم على المصطبة؟!

وكان يمكن معرفة إجابة هذا السؤال لو أنّنا تحرّكنا، واتّجهنا إلى سباتة «مرز»، لكن حالةً عجيبةً من الرّهبة جعلتنا نرفض فكرة الذّهاب إلى السّباتة الآن، حالة أغرقنا فيها الغروب الرّهيب في بلادنا، وأغرقتنا فيها الجثّة التي عادت إليها الحياة! وأغرقنا فيها إحساسنا بأن «مرز» قد صار ساحرًا.

لا بُد هو ساحر!

لا بُد بالطبع!

وإلّا كيف تجلس «جوهرة» على المصطبة وهي ميّتة منذ ليلتين؟!

وكيف يُطيق الجلوس مع امرأة ميتة عادت إليها الحياة؟!

لقد توحّش «مرز»، توحّش، ويجب الحذر منه.

ولم نذهب إليه في مشارف الليل، وإنّما ذهبنا في الصّباح.

نور الشّمس يملأ العالم، والنّهار يده على صدورنا تطمئن قلوبنا المرعوبة منذ الأمس.

ومشينا مع «ليل» نقدّم خطى، ونؤخّر خطى،

حتَّى رأينا سباتة «مرز»، وحتَّى رأينا المصطبة، ورأينا الـذي رآه «ليـل» وأخبرنا بـه.

«جوهرة» الجالسة!

جالسة ثابتة!

جالسـة ثابتـة في لفائـف بيضـاء يمـتزج نصوعهـا باحمـرار الحنَّـاء، لا يبـدو، مـن هـذه اللفائـف، سـوى رأس «جوهـرة» وقـد انسـدل منـه شـعرها الأسـود الفاحـم، وبـدا جلـد وجهها شـاحبًا، وعيناها تنظـران إلى الـشَّرق ولا تطرفـان، عينـان مفتوحتـان، متجمِّدتـان، مُفزعتـان.

قلوبنـا، رغـم نـور النَّهـار، دقَّـت بالهلـع، وعـلى الأرض كانـت آنيـة فخَّاريـة بهـا «قـرض» مطحـون، و«نيلـة» زرقـاء، و«حنَّـاء» معجونـة، وعصائـر ليمـون، وبقايـا ملـح.

خرج من «الفضل» صوت، عال، مهزوز:

- أعوذ بالله.. موميا! أعوذ بالله.

صوت «الفضل» فاجأ سكوننا الذَّاهل فزلزلنا.

وخـرج «مـرز» مـن داخـل «سـباتته» عـلى صـوت «الفضـل»، نظـر إلينـا، ونظرنا إليـه، بـدا لنا شـبحًا

بعينـين متوهِّجتـين بالحُمـرة، عيـني سـاحر... سـاحر!

وأحسسـنا، في هـذه اللحظـة، أن «مرز» سـوف يقبض علينـا، ويلفُّنا باللفائـف البيضـاء، وأنَّـه سـيجعلنا جثثًا مُحنَّطـة، مُخيفـة، تنظـر إلى الـشَّرق بثبـات.

تفجَّـر فينـا الخـوف مرَّة واحـدة، تفجَّـر فينا الخـوف فاسـتدرنا بسرعـة الـبرق، وجرينـا في الحقـول كضبـاع فزِعـة، تتمنَّـى لـو أن أوكارهـا هرعـت إليهـا.

فصل

مــرز... مــارز... مــاارز... مــااااارز... مااايييــيرز... مااااييييــوووورز... مييــيرز... مووووووورز... شــوووووورز... ووووووووووف.

عندما نظرنا إلى الذي أشار إليه «هديَّة» جحظت عيوننا، وألسنتنا التجمت، وأقدامنا التصقت بالأرض.

كنَّا في السَّاحة التي أمام الجامع، نتأهَّب لدخوله كي نصلِّي الفجر، عندما رأينا العجب الذي أشار إليه «هدية»، هذا العجب الذي لم نعتقد قطّ أن يصل إليه جنون «مرز»!

فقد سمعنا من آبائنا، وأجدادنا، ما جعلنا نرتعب من مجرد التَّفكير في الاقتراب من هذه الصَّخرة المهولة، إنَّها مليئة بالمغارات التي يمرح فيها الجن المتمرِّد، وبالجحور التي تكمن فيها الثَّعالب والضِّباع، والذِّئاب، والحيَّات السَّوداء التي تصلصل

كالأجـراس الفزعـة، وتنتـثر عليهـا الأشـجار الشّـوكية العملاقـة.

إن مشـهدها مـن هنـا فظيـع، إنَّهـا تبـدو جلمـودًا متعملقًا في لـون كالـح يتصعَّـد ليشرخ السَّـماء، وعلـى الرُّغم مـن أن بيوتنا تبعـد عنها أميالًا طويلة، إلَّا أنَّها تبـدو وكأنَّهـا ستسـقط فوقهـا وتدكُّهـا، تبـدو قريبـة للدَّرجـة الـتي نشـعر معهـا أن أنفاسـنا دائمًا مكتومة، حتَّى الشَّـمس الـتي تظل سـاطعة، طـول النَّهار، عـلى النُّجـوع المجـاورة، تختفـي عندنا خلـف هـذه الصَّخرة بعـد أذان العـصر بقليـل، تحجبهـا عـن بيوتنا وحقولنا مبكِّـرًا.

في الفجـر، عندمـا نخـرج إلى الجامـع، يكـون كل مـا حولنـا مظلمًـا، إلَّا قمَّـة هـذه الصَّخـرة! الـتي تتوهَّـج بنـور ذهـبي معكـوس عليهـا مـن الشَّـمس الغاطسـة في الـشَّرق، ومشـهدها في هـذه اللحظـة يبهـر، إذ تبـدو، وهـي مضيئـة سـابحة في السـماء المعتمـة، مثـل مـلاك حـارس.

وبقـدر هـذه الرَّوعـة الـتي نشـعر بهـا في الفجـر، نشـعر بالخـوف في الليـالي العاصفـة، فالرِّيـح الغاضبـة تجعـل الصَّخـرة تعـوي مثـل رجـل يُقتَـل، وتجعلهـا

تـصرخ صرخـات امـرأة تحـترق، وتجعلهـا تقهقـه مثـل رجـل عِربيـد، وتجعلهـا تزغـرد مثـل أفعـى مذعـورة، وتجعلها تئنّ أنينًا عميقًا متهالكًا مثل أُناس يتعذبون.

في هـذه الليـالي العاصفـة نكمـش مـع عيالنـا، وحريمنـا، تحـت أغطيتنـا، لكـن الأصـوات تشـتد، وتقـوى، وترعشـنا.

وعندما تهل الصَّباحات، ونخرج إلى حقولنا، نراها هنـاك، جهمـة، سـاكنة، راسخة، قابضة عـلى قلوبنا، ودائسـة عـلى صدورنـا، لذلـك لا أحـد يخاطـر بالدُّنـو منهـا، لا أحـد.

لا أحد، بالطَّبع، غير هذا المجنون.

فـ«جوهـرة» لا تهـم أحـدًا غـيره، زوجتـه هـو، هـي الـتي درجتـا ونصرتـه، هـي الـتي كذَّبتنـا وصدَّقتـه، عبسـت في وجوهنـا وضحكـت لـه.

لكـن هـل هـذا الـذي فعلتـه مـن أجلـه يسـتحق أن يعمـل لهـا هـذا العمـل الأغـرب مـن كل أعمالـه؟!

ثم كيف قدر وحده على عمل هذا؟!

لو تجمَّع رجال كل النُّجوع لن يقدروا!

وكيف بهذه الدِّقة؟!

الذي نراه لا يختلف مطلقًا عن رأس «جوهرة»!
الملامح هي هي، تقطيبة جبينها، رأسها المائل
ميلة الدَّلال، عيناها الواسعتان، رقبتها الممتلئة،
شعرها المنسدل.

هو، وجه «جوهرة»، بكل ملامحه، يُطل علينا
منيرًا بالنُّور الذَّهبي الذي تشعُّه شمسُنا التي لم
تشرق بعد، يطل علينا مالئًا الأفق.

ومضينا من عند المسجد دون أن نشعر، مضينا
صامتين، ذاهلين، مضينا إلى بيوتنا ونحن نفكِّر في أنَّه
كيف لم نر هذا الرَّأس طوال هذه المدَّة؟! كيف
فوجئنا بوجوده مكتملًا؟!

رأس صخرى بهذا الحجم المهول لا بُد وأن
ينقضي وقت طويل في نحته، وقت طويل جدًّا.

انتباهتنا لوجود هذا الرَّأس جعلتنا نعرف أين
اختفى «مرز» كل هذه السِّنين التي تبعت موت
زوجته، كان قد اختفى، منا الذي لاحظ اختفاءه،
ومنَّا الذي لم يلحظ، وكلُّنا لم نهتم، فكلنا وقتها
توقَّعنا هجرته، فماذا سيفعل في نجعنا بعد موت

الكائن الوحيد الذي كان يهتم به؟!

توقَّعنا هجرته، لكنَّا لم نتوقَّع، قطّ، اختراقه
للمقابر، وتسلُّقه الصَّخرة، ونحته قمَّتها، ليحوِّلها إلى
رأس «جوهرة»!

ودخلنا بيوتنا فلم نكلِّم حريمنا، ولا عيالنا، غرقنا
في السُّكوت، لكن العصافير هي التي شقشقت،
ودجاجنا انتشر في ساحات بيوتنا، ينقر الأرض،
ويقأق، ونعرت أبقارنا، وصباحنا طلع، وشمسنا
أنارت، وخرجنا نجرّ بهائمنا إلى حقولنا.

وفي غرب النَّجع، حيث لا بيوت تحجب كل رؤيتنا،
رفعنا عيوننا لننظر إلى الصَّخرة، كيف تبدو وأعلاها
رأس «جوهرة»؟!

لكن عيوننا لم تر ال-..!

لم تر ال-...!

لكنَّها رأت.....!

أين الكلمة التي تعبِّر عن الذي هو أقوى من
الاندهاش والعجب؟!

أين؟!

رأت عيوننا «جوهرة» كاملة!

«جوهـرة» صخريـة بحجـم الصَّخـرة المهـول،
«جوهـرة» عملاقـة، واقفـة، كالحـة، وراء غلالـة ضبابيَّة،
واضعـة يدهـا اليمـنى في خصرهـا، ويدهـا اليسرى
تبسـطها عـلى صدرهـا.

بدت، في وقفتها، جميلة جميلات، كلها غنج.

سـطعت الشَّـمس، فانهـارت غلالـة الضَّبـاب، وبـدا
لـون بشرتهـا القمحـي نابضًـا بالحيـاة! طرحتهـا ترفـرف
عـلى كتفيهـا! جلبابهـا ناصـع!

رضخنـا لانبهارنـا، وتسـاءلنا: كيـف قدر هـذا المجنـون
عـلى عمـل كل هـذه الروعـة الـتي سـمَّرتنا، فلـم نعمـل
شـيئًا في حقولنـا وأراضينـا، وإنَّمـا بقينـا نحـدق في هـذا
الصَّنـم!

ونزلـت الشَّـمس خلـف رأس «جوهـرة» المائـل،
وبدأنـا نسـتعد للظَّـلام المبكِّـر الـذي ستبسـطه علينـا
الصَّخـرة، صخـرة «جوهـرة»!

اتَّجهنـا إلى الأوتـاد الخشـبيَّة، وفككنـا منهـا الحبـال،
وجررنـا بهائمنـا،

الهـواء بـدأ في التحـرُّك، وزروعنـا أخـذت ترتعـش،

وأسراب «أبـو قـردان»، النَّاصعـة البيـاض، تنسـاب في
السَّـماء مثـل سـهام مُجنَّحـة.

واسـتدرنا في مشـينا لنواجـه بيوتنـا الماضـين إليهـا،
فرأيناهـا سـابحة في الظِّـلال المعتمـة، ورأينـا بيوتنـا
تتكـوَّر حـول أنفسـها كارهـةً هـذا الظـلام القـادم.

لكن شيئًا رأيناه اتسعت له حدقات عيوننا!

شيء يسـعى عـلى الأرض مثـل مياه بشائر الفيضان،
ويسـقط في الشُّـقوق فيملؤهـا، ثـم يعلـو ليحيـط
بالأحجـار ونتـوءات الأرض، فيغطِّيهـا ليتمـدَّد غـير آبـه
بمـا يواجههـا!

نور!

إنَّه نور!

النور!

نـور زحـف عـلى الأرض، ثمَّ تسـلَّق جـدران بيوتنـا في
أنـاةٍ، وأضـاء نجعنـا بنـور الذَّهـب، واسـتدرنا لننظـر إلى
مصـدر الضَّـوء الـذي اكتسـحنا، فرأينـا شمسـنا تطـل
علينـا مـن تحـت إبـط «جوهـرة»!

تطـل علينـا بوجـهٍ بـاشٍّ، مـازحٍ، مُشـاكسٍ، تطـلُّ
علينـا وهـي تتأرجـح في الفـراغ الهائـل الموجـود بـين

إبط «جوهرة» ويدها القابضة على خصرها، تأرجح غاربةً، وتغرب متوهِّجةً، وسبحنا في نورها الدَّافق، وسبحت فيه حقولنا.

هذا النُّور الذي حُرمت منه أراضينا وبيوتنا آلاف السِّنين.

تركنا الحبال التي كنَّا نمسكها، فرتعت بهائمنا نحو الخضرة المذهَّبة، ورتعت الدُّموع في عيوننا، قلوبنا ترجرجت، نفوسنا شفَّت، إنَّنا نرى الذي لم يره الآباء، ولا الأجداد، نرى الذي سيتمرَّغ فيه أولادنا وأحفادنا.

سكرت أرواحنا، وبقينا سكرانين ننظر إلى شمسنا الحلوة حتَّى حوَّلت أبصارنا سحابة تراب خفيفة، تتصاعد من أرض المقابر، ودقَّقنا النَّظر فرأينا رجلًا نحيلًا، يمشي يجرجر رجليه.

دقَّقنا النَّظر فرأينا وجهه متغضِّنًا متيبِّسًا.

دقَّقنا النَّظر، أكثر، فرأينا «مرز»!

كان الهواء يدفع جلبابه إلى الأمام فيرفرف حول ساقيه، و«مرز» يكاد، من خفَّة جسده، يطير.

مر أمامنا فلم يكلِّمنا، ولم نكلِّمه، لكنَّا أحسسنا بالشَّفقة عليه تجتاحنا، فهذا الرَّجل ليس له ذنب في كل ما يفعله، إنَّه ليس أكثر من ضحية عقله المختل.

فلو لم يكن ضحية عقله المختل هل كانت الحياة ستضيع منه هكذا؟!

هل كان سيبقى وحيدًا، في أرذل عمره، يجوب المقابر، ويرمي بنفسه في المهالك؟!

هل كان سيضيِّع سنين عمره ينحت الصَّخرة الصَّلدة لمجرد أن يصنع صنمًا لزوجته؟!

ووشوش الهواء شواشي النَّخيل، ثم خبط غصون الأشجار، وبدأ يشتد، حتَّى كأنَّه سينزعنا من الأرض، وكنَّا نلملم أنفسنا، عندما سمعنا همسًا صادحًا يمتطي العاصفة، همسًا أنثويًّا ميَّاسًا، همسًا يقول:

- حبيبي.

وفتحنا عيوننا، بصعوبة، لنرى من هي هذه الفاجرة التي تقول «حبيبي» على مَسمَع منَّا، فلم نرَ أحدًا!

لم نرَ أيَّ نساء.

تجبَّرت الرِّيح، فسمعنا ضحكات صدَّاحة لأنثى غنَّاجة، وتتبَّعت آذاننا الصَّوت، فأدركنا من أين تأتي هذه الأصوات!

كانت تأتي من عند الصَّنم!

وعصفت الرِّيح فسمعناه ينادي: مااارز... مااااااارز... مييييرز.

انتصب شعر رءوسنا، وجلودنا تشقَّقت من القشعريرة، و«مرز» الماشي في سكينة على ضفَّة التّرعة «المُرَّة» وقف، ونظر إلى «جوهرة»، وخلع عمامته ولوَّح بها إليها، كان يبتسم، وهي فردت ذراعيها الطويلين في اتِّجاه «مرز» فكادت تهدم بيوتنا! قالت:

- حبيبي... حبيييبي.

لم نتحمَّل، وقعنا على الأرض وتدحرجنا، والريح العاصفة حملتنا، وطيَّرتنا في الهواء مثل قشٍّ تافه، وفي طيراننا طارت عقولنا من جماجمنا، وقلوبنا قفزت من ضلوعنا لمَّا رأينا «مرز» يفرد ذراعيه تجاه

«جوهرة» العملاقة، التي كانت تغمز له بعينيها، وتبتسم.

فصل

طيور مختلفة الأنواع تنطط على أوتار الكمنجة،
أنغام رائعة تطلع من صدره إلى السماء...

لماذا ينام هكذا على ضفَّة التّرعة «المُرَّة»؟!

هـذه الضفَّـة هـي طريقنا إلى حقولنا، فلمـاذا ينـام هكـذا في منتصفها؟! مُمدَّدًا عـلى ظهـره، فـاردًا ذراعيـه، مُتَّخِـذًا شـكلَ صليـب! يـكاد يسـدّها.

لقـد اضطررنـا إلى أن نسـوق بهائمنـا فـوق حـوافّ الضفَّـة حـتَّى نمـر، وهـو، رغـم نعـير أبقارنـا الـتي كادت تدوسـه بحوافرهـا، لـم يصحُ، لـم يفتـح عينيـه، حـتَّى لـم يتقلَّـب، وإنَّمـا بقـي ثابتًـا مثـل قطعـة حجـر مطروحـة.

ولم يكن أمامنا سوى المرور على الحافَّة.

فلمـاذا نوقظـه، ونكلِّمـه، ونحـن نعلـم أنَّـه لـن يأبـه لنـا؟!

ثم إن نومته مخيفة!

إنَّه متمدِّد مثل إنسان ميِّت!

جسـده كأنَّـه جثَّـة قتيـل، فـكان الأفضـل أن نُريـح

أنفسنا ونعبر ببهائمنا على الحافَّة.

وفي حقولنا ضحكنا من منظره، وقلنا إنَّه نائم نومًا ثقيلًا لن يصحو منه إلَّا إذا هبَّت عاصفة، وطيَّرت جلبابه من فوق عورته، وكشفتها، وغرقنا في الضَّحك عندما قال «القُبَّة» إن أفضل شيء نعمله هو أن نذهب إلى «مرز»، النَّائم بعمق، فنرفع جلبابه، ونحك عورته.

زعق «القُبَّة» بعد أن قال اقتراحه:

- ابن الكلب هايحلم إنُّه راكب عَ المرجوحة.

وقهقهنا.

«النيحة»، بخبثٍ، سأل «القُبَّة»:

- مين يحكُّهوله يا «قبّة»؟

«القُبَّة» زعق في وجه «النيحة»:

- أمّك يا خول.

أسراب الغربان تشق السَّماء، طيور «أبو القردان» تطير وقد تحوَّل لونها الأبيض إلى لون ذهبي برَّاق، الشَّمس واقفة على كتف الصَّنم الشَّاهق وقد احمرَّت مثل حبَّة طماطم، صوت الغروب، الهواء يقوى، نجرُّ بهائمنا إلى البيوت، نمر بها على ضفَّة

التّرعة «المُرَّة»، طريقنا الممتدة منذ عشرات السِّنين بين كتلة البيوت والغيطان، وهناك، في نفس المكان، «مرز» ما زال نائمًا! جسده مُمَدَّد على شكل صليب، نفس النَّومة، ربما رأسه فقط هو الذي تحرَّك، فنحن غير متأكّدين من الجهة التي كان يُطل بوجهه إليها، عمومًا لم يكن هذا هو المهم، المهم نومته التي أقلقت راحتنا وراحة بهائمنا، هل كل هذه الأرض ضاقت عليه فلم يجد إلَّا طريقنا ليلقي بجسده عليها، وينام متصالبًا، يكاد يسدّها؟!

بغياب شمسنا، خلف صخرة «جوهرة»، ينقضي نهارنا، وبهبوب الرِّيح يبدأ ليلنا، مرَّات تكون الرِّيح مجرَّد نسمات رائقة، ومرَّات تشتد فتصير أعاصير، وفي كل المرَّات كان الصَّنم يميس ويتدلَّل:

«وووماااارز... ييييمااارز.. وااايميييييرز».

لكن في هذه الليلة، في هذه المرة، لم يتدلَّل الصَّنم، وإنَّما ناح: «مااارز.. ماااااارز.. ااااارززززز».

وشواشي النَّخيل توقفت عن الوشوشة، وارتفعت صيحة بومة مُنقضَّة، وارتفعت صأصأة فأر يُقتل، وفجأة زعقت «جوهرة»: «ماارز».

زعقة حادَّة اخترقت آذاننا، ونفذت إلى جدران

قلوبنا، زعقة مرعبة مثل موءة قطٍّ متوحِّش خارج من قبر.

الرِّيح تعصف، عواء ذئاب، صفائح فارغة تطير من فوق أسطح بيوتنا، وتسقط في شوارعنا، مُحدِثةً ضوضاء مُفزِعة.

الصَّنم يئنّ، وجلودنا من الارتعاش تشقَّقت، وشعر رءوسنا طقطق، وحريمنا اندسسنَ في أحضاننا، وعيالنا تكوَّروا فوق صدورنا، وكلُّنا تكوَّمنا تحت الأغطية.

ها هي شمسنا تشرق، ها هو نور الصَّباح يسطع، العصافير تشقشق، الإوز يصيح فرحًا، الدَّجاج ينقر ساحات بيوتنا، حمامنا يتغازل على أعالي الجدران وفي طاقاتها الضَّيقة، أبقارنا وجاموسنا نجرُّه إلى الحقول، مشوارنا اليومي الذي لا يختل أبدًا، مشوارنا الذي ورثناه عن آبائنا وأجدادنا، مشوارنا الذي سنتركه لأولادنا وأحفادنا، هذا الطَّريق المُترَب، المتدلِّي من بين البيوت، والمنساب ملتويًا بين الأراضي البور المزروعة بالنَّخيل، والملتصق، في نهايته، بضفَّة التِّرعة «المُرَّة»، هذه الضفَّة التي تدوسها أقدامنا، وحوافر بهائمنا، ومخالب كلابنا،

طريقنا المحدَّدة، المعروفة، التي لا نحيد عنها، مثل هذه الشَّمس التي لا تحيد أبدًا عن طريقها الواضحة لها في السَّماء، ورغم أنف «مرزّ»، ونومته المتصالبة، لن نحيد، سنمر بكل حذر على الحافَّة، حتَّى لا نسقط مع بهائمنا إلى مياه التِّرعة، سنمر على أيِّ حال.

تمنَّينا أن يكون قد استيقظ اليوم ليفسح لنا الطَّريق، لكنَّنا للأسف وجدناه على حاله، نائمًا متصالبًا، نفس النَّومة، كأنَّه لا يتحرَّك مُطلقًا، فقط جسده امتلأ بعض الشَّيء، ولم نستغرب هذا الامتلاء، فطبيعي جدًّا أن يمتلئ جسد الذي لا يفعل شيء سوى الأكل والنَّوم، ثم إن الذُّباب بدأ يتكاثف عليه، ورائحة عفنة أخذت في الانتشار حوله، طبيعي جدًّا أن يتكاثف الذُّباب على جسد عفن، ينام كل هذا النَّوم دون استحمام! أو حتَّى غسل الوجه واليدين والقدمين، فماذا يمكننا أن نفعل في مثل هذه الظُّروف غير أن نكتم أنفاسنا، ونمر بحذر فوق الحافَّة الضيِّقة!

لماذا يُصر على مضايقتنا؟!

لقد تحمَّلنا نومته الغريبة، وسدَّه لطريقنا،

واستطعنا أن نتصرَّف ونمر، لكنَّنا لن نستطيع أبدًا أن نتحمَّل هذه الرَّائحة العفنة! لقد زكمت أنوفنا ونحن لم نزل نبعد عنه عشرات الأمتار، فماذا سيحدث لو أنَّنا اقتربنا أكثر من هذا؟! حتَّى بهائمنا صدمتها الرَّائحة، للدَّرجة التي جعلتها تسمَّر في أماكنها، وترفض التحرُّك، ولو خطوة واحدة، إلى الأمام، وعندما بدأنا نغصبها على التَّحرك، هاجت وحاولت الفكاك منَّا.

إن رائحته، بالفعل، فظيعة، والذُّباب غطَّى جسده، وطنينه علا مثل أزيز طائرة رش المبيدات.

لينم كيفما يحب، وليتعفَّن كيفما يحب، لكن يجب أن يعرف أنَّنا لا بُد وأن نمر إلى حقولنا ببهائمنا.

«الحرّوك» قال متأفِّفًا:

- وبعدين يا اخوانَّا!؟

قال «ضيف»:

- ما فيش غير إن احنا نكلِّموه.

«فتحة» قال:

- يُقبا مكلمناهوشي وهُوَّا نضيف ومتعطِّر.. نروحو نكلّموه وهُوَّا معفن؟!

هذه المهمَّة ثقيلة، أثقل من هذا الصَّنم الطَّال علينا من الغرب.

رضخ «جودة» لتوسُّلاتنا، ووضع طرف «جلَّابيته» على فمه وأنفه، وذهب إلى «مرزٍ»، ورأيناه وهو يقف بالقرب من الجسد المتصالب، وسمعناه ينادي عليه، لكنَّا لم نسمع ردًّا من «مرز»، ولم نر أيَّ حركة تدل على أنَّه قد انتبه لنداء «جودة»!

مال «جودة» على الجسد، فتصاعدت من فوقه سحابة من الذُّباب الأزرق، والأخضر، والأسود، كادت تغطِّي «جودة» نفسه!

في هذه اللحظة رأينا فزعًا يطل من عيني «جودة»، ورأيناه يمد إصبعه، ويغز به جسد «مرز»، ثم رأيناه ينتصب مثل ثعبان خائف، ويزعق مبحوحًا:

- أعوذ بالله.. دا ميت!

ابن «مرز» هو الوحيد الذي سيهتم بأن يلم جثَّة أبيه المتعفِّنة على الضفَّة، هو الوحيد الذي سيحاول أن يجمع النَّاس ليصلُّوا عليها رغم عفونتها، فمن غيره يمكن أن يتحمَّل كل هذا القرف! إنَّها جثَّة أبيه، ولو تركها دون دفن لن يركب العار غيره.

لكن أين ابن «مرز» هذا؟!

عاش «مرز» حياته كلها فلم يُنجب، عاش فقط ليعمل أعمالًا غريبة، أعمالًا ربما جعلتنا، في بعض الأوقات، ندهش، لكن هل هي قادرة على أن تنفعه الآن؟

من منًّا يمكنه أن يقبل بتغسيل وتكفين جثَّة، متعفِّنة، متهرِّئة؟

من منًّا يقبل أن يُدخل هذه القذارة إلى جامعنا الطاهر؟

من منًّا سيتحمَّل أن يرفعها على كتفيه، ويسير بها حتَّى المقابر؟

شمسنا على كتف «جوهرة» تستعد للمغيب، والاصفرار غمر الدُّنيا، وفي السَّماء غربان، وقرادين، وهداهد، عائدة إلى أعشاشها، ونحن نسير إلى مكان جثَّة «مرز»، وفي أيادينا المساحي، الجواريف التي نستعملها في إزاحة الثَّرى وشق الجداول في حقولنا.

عندما وصلنا إلى الجثَّة كتمنا أنفاسنا، وبمنتهى القوَّة والسُّرعة أخذنا نزيحها بمساحينا، كانت ثقيلة للغاية، وتحاول التسمُّر في الأرض، ولم يكن أمامنا سوى مواصلة الذي بدأناه، المواصلة من أجل أن نفتح الطَّريق.

تكاثرت الجواريف، وتزحزحت الجثَّة.

تزحزحت...

تزحزحت....

وعندما دفعناها، دفعة واحدة قويَّة، أفلحنا في أن نلقي بها في التّرعة «المُرَّة»، التي تقلقل، إثر ذلك، ماؤها الرَّاكد.

«القاهرة» 1998

أشرف الخمايسي

روائي مصري من جيل التسعينات، أصدر عددًا من المجموعات القصصية ورواية «الصنم» التي بين أيدينا، والتي يعتبرها النقاد جوهرة الخمايسي الأهم في رسم تاريخه الأدبي، قبل أن يتوقف عن ذلك التاريخ وعن الساحة الأدبية سنوات، ليعود برائعته الأشهر «منافي الربّ» والتي صعدت لقائمة البوكر الطويلة لعام 2014. وتتوالى بعدها دلالات العودة القوية برواية «انحراف حاد» ومجموعة قصصية «أهواك».

صدر له:

«الجبريليَّة»، مجموعة قصصية، سلسلة «إبداعات» عن الهيئة العامة لقصور الثقافة 1995.

«الصَّنم»، رواية، جريدة «أخبار الأدب» 1999، وسلسلة «أصوات أدبية» عن الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999، ودار «الحضارة» للنشر 2013، ودار «الربيع العربي» للنشر والتوزيع 2015.

«الفرس ليس حرًّا»، مجموعة قصصية، دار «الحضارة» للنشر 2011.

«السَّكاتة»، مجموعة قصصية للأطفال، كتاب «قطر الندى» عن الهيئة العامة لقصور الثقافة 2013.

«منافي الرَّب»، رواية، دار «الحضارة» للنشر 2013، الدار المصرية اللبنانية 2014.

«انحراف حاد»، رواية، الدار المصرية اللبنانية 2014.

«أهواك»، قصص، دار «الربيع العربي» للنشر والتوزيع، 2015.

أشرف الخمايسي

الصنم

أنا "مرز"، بطل هذه الرواية التي بين يديك أيها القارئ الكريم. ربما لأني لم أتكلم داخل الرواية سوى بضع كلمات، أتدفق الآن في كلامي معك، ستعرف أني عملت أعمالًا عجيبة، وعظيمة، تليق بمصلح اجتماعي كبير، وأحببتُ زوجتي "جوهرة" كثيرًا، خاطبتُ الناس في نجعي بِصَمتي المُحب، وأفعالي الساحرة، ولم أهتم كثيرًا أو قليلًا بصوتهم الجمعيّ، هذا الصوت الذي يحاول دائمًا أن يهمّشني، بينما، في قرارة نفسه، يفيض إعجابًا وانبهارًا بأعمالي التي عملتها.

أشرف الخمايسي

روائي مصري، وصلت روايته "منافي الرّب" للقائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية ٢٠١٤، والقائمة الطويلة لجائزة معهد "أكيودي" الصيني.
كما وصلت روايته "انحراف حاد" للقائمة الطويلة بجائزة الشيخ زايد فرع الآداب، والقائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية ٢٠١٥.
صدر له أيضًا "أهواك" خمس نوفيلات، ومجموعتان قصصيتان: "الجبريلية"، و"الفرس ليس حرًا".



تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف